نادي القصة بالقاهرة
[illegible]

شـــمـــس

مجموعة قصصية

تأليف

طالب الرفاعي

الهيـــئة العامة لـــقصور الثقـــافة

سلسلة

آفاق عربية

تعنى بنشر إبداعات الأشقاء العرب

(89)

شمس (مجموعة قصصية)

تصميم الغلاف : أحمد اللباد

المراجعة اللغوية: عادل سميح

الطبعة الأولى : ٢٠٠٥

رقم الإيداع :٢٠١٧٣/ ٢٠٠٥

المراسلات باسم مدير التحرير :

على العنوان التالى :

١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى -

القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الطباعة والتنفيذ

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦

رئيس مجلس الإدارة
د.أحمد نوار

أمين عام النشر
د.أحمد مجاهد

الإشراف العام
أحمد زرزور

هيئة التحرير

رئيس التحرير
د.شاكر عبد الحميد

مدير التحرير
حسن الجوخ

سكرتير التحرير
لبنى أحمد الطماوى

ليـــال

أغرت الريح البرج الابن من أبراج الكويـــت، ســـرَّبت الضجر إلى روحه. ملَّ تسمُّره في وقفته الخرسانية، وعيناه مشدودتان جهة البحر. حرّكته القصص الكثيرة التي يسمعها من شباب شارع الخليج العربي الذين يأتون للسهر بقربه كل مساء، عزم على أن يتجول في شوارع الكويت، يتعـــــرَّف أحياءها، يخالط أهلها.

فاتح البرج الابن الأب بفكرته، طلب منـــه أن يصـــحبه، فتعذره الأب بوقار قائلاً إنه يحمل المطعم الدوّار في قلبـــه، وإن عقده مع شركة المشروعات السياحية لا يسمح بتنقلـــه، خصوصاً أنه ملزم باستـــقبال ضيوف الكويت الرســـميين، وإنه برج أصيل يحمل سمعة بلد في رقبتـــه، لـــذا لا يـــود التفريط فى سمعته، والتخلي عن مسئوليته.

التفت البرج الابن إلى الأم، وقبل أن يتفوه بكلمة تعذرته بقولها:

"آسفة ! سمعت حواركما، أنا امرأة حامل، الميـــاه تمـــلأ بطني".

واحتدت نبرتها قليلاً :

"لست مجنونة لأتمشى وحدي في الشوارع. أنا واقفة في مكاني وأرقام الهواتف ترمى تحت قـدمي. فتـاة تتمشـى وحدها وفي شوارع الكويت ؟ أوف، أرجوك انس الموضوع يا ولدي".

حزم البرج الابن أمره، اتفق مع الريح، أراد أن يتسـلى. وفي أحد المساءات الباردة، بدأ يتزحزح من مكانه، اسـتقبل شارع الخليج.

*****

ليلة أولى :

"سأفتتح مكتباً للخدم".

أرسل مصطفى مدير الإدارة جملتـه مخاطبـاً حامـداً الموظف في إدارته، وأكمل :

"أحتاج إلى شريك".

فاجأت الفكرة حامداً.

كانا جالسين في مطعم "ميس الغانم" على شارع الخلـيج "زرت الفلبين أكثر من مرة. رتبت الأمر مع مكتب عمالـة هناك".

"كم المبلغ المطلوب مني ؟".

سأل حامد، وأضاف بصوت مرتبك :

"تدري الأحوال".

"فقط تتولى إدارة المكتب مقابل عمولة على كل رأس".

تساءل حامد :

"ماذا عن دوامي في الإدارة ؟".

طمأنه مصطفى :

"لا تفكر بالأمر، بما أنك ستداوم في مكتب الخدم، فأنـــت موجود في الوزارة".

ابتهجت أسارير حامد، اتفق مع مصطفى.

لحظتها أحسّ مصطفى بأن البرج الابن أطلّ عليهما من النافذة، استرق السمع لاتفاقهما، لكن البـــرج أدار وجهـــه، أكمل مسيرته.

*****

ليلة ثانية :

مسرعة نزلت سارة من سيارتها والارتباك ظاهر عليها.

هدّأ البرج من مشيته.

متلفتة دخلت البناية، صعدت إلى شقة في الدور التاســـع. وجدته وحده. رمت نفسها على يده تقبلها :

"أرجوك منصور..".

نفض كفه من بين يديها، أخذ طريقه إلى الصوفة، جلس عليها بدشداشة النوم قبالة التلفزيون يدخن سيجارته.

توسلت إليه :

"أبوس يدك. شمّة واحدة. سأجن !".

ظل في صمته المغلق.

"أرجوك ردّ عليّ".

بتعال نظر إليها :

"تعرفين ما الثمن المطلوب".

حفر الانكسار وجهها :

"لا أستطيع، الله يخليك، اطلب أي شيء آخر، هذه هـــي النقود".

فتحت أمامه حقيبة يدها. أهملها عائداً إلى دخانه ومتابعة التلفزيون.

"منصور أنتَ ورّطتني، ساعدني !".

ركعت أمامه :

"أبوس رجلك !".

"تعالي إلى الغرفة، خمس دقائق وبعدها لك ما تريدين".

"لا أقدر، لا أقدر".

ارتفع صوتها بالبكاء.

لحظتها انتبه منصور إلى وجود البـــرج الابـــن قـــرب النافذة، لكن البرج أدار وجهه، أكمل مسيرته.

*****

ليلة ثالثة :

"أخاف الظلمة يا ابني".

بصوت باكٍ شكت العجوز تبث خوفها لابنها حامد .

أغلق باب ملحق السطح عليها :

"نامي، نامي".

"حامد، حامد".

تجاهل نداءها، نزل يقفز درجات السلم، أسرع إلى غرفة النوم.

"خلص، أغلقت عليها بالمفتاح، غداً صباحاً آخـــذها إلـــى دار العجزة".

ظلت زوجته منال في دلالها :

"كان بإمكانك أن تأخذها الآن".

"حبيبتي، الساعة جاوزت الواحدة. أعدكِ غداً صباحاً لـــن تكون هنا".

أدارت له ظهرها :

"تصبح على خير !".

مدّ يده :

"منال حبيبتي !".

"ابتعد عني. اذهب نم بحضن أمك !".

حاول حامد تقبيلها :

"منال حبيبتي".

رقّ البرج لنداءات الأم الباكية، انـــزعج خـــاطره، أدار وجهه، أكمل مسيرته.

*****

ليلة رابعة :

انزعج البرج، أدار وجهه، أكمل مسيرته.

ليلة خامسة :

انزعج البرج، أدار وجهه.

ليلة سادسة :

انزعج البرج.

ليلة سابعة :

تابع حامد أعمال المكتب وإعلاناته التي ملأت الصحف:

(الخدم الممتاز، شرط التسليم. نوفر الخـــادم، الخادمـــة. الطبّاخ، الطبّاخة. السائق، السائقة. الزرّاع، الزرّاعة، مربية الأطفال المتخصصة، ممرضة كبار السن).

(الخدم الممتاز. تَسلَّم خلال أسبوع الخادم الذي ترغب، مسلم أو مسيحي. كفالة، شرط الفحص صحي).

(الخدم الممتاز. متوفر لدينا ألبومات صور، وكذلك أشرطة فيديو صُوِّرت حديثاً).

جهّز مصطفى مدير الإدارة غرفة نوم خاصة لاستقبال الأجمل من الفتيات القادمات. كل فتاة تبقى حبيسة ليلتين أو ثلاثاً ترغيباً أو تهديداً، تتنقل بين أيدي مصطفى وحامد، بعدها يُطلق سراحها إلى بيت مخدومها.

بينما مصطفى غاطس في حضن إحدى الفتيات، رفع رأسه فرأى البرج الابن يختلس النظر إليه عبر النافذة. اشتط غضباً، توعد البرج.

ليلة ثامنة :

مسرعة صدمت سارة الرصيف بسيارتها، نزلت مستعجلة. دخلت البناية إلى شقة الدور التاسع. استقبلها منصور وأصدقاؤه. أشارت إليه بيدها :

"تعال إلى الغرفة".

كان في دشداشته، نهض عن الصوفة، اقترب منها، نزع عنها ثيابها في الصالة.

ليلة تاسعة :

غرفة أم حامد مظلمة، وفراشها فارغ.

ليلة عاشرة :

رجع البرج الابن مشوشاً إلى مكانـــه. وجـــد ســـيارات شرطة النجدة بانتظاره. ترجل ضابط صغير الســـن، رفـــع صوته بوجهه معنِّفاً، أنذره بضرورة أن يغمض عينيه عمـــا يرى في أثناء تجواله، يحفظ لسانه. لكن، البرج الابـــن لـــم يلتزم بما أمر به الضابط صغير السن، فصدر الحكم بحبسه مدى الحياة خلف قضبان صفراء، تحرسه ليل نهار سيارات شرطة النجدة.

من حينه، ألمَّ بالبرج الابن هزاله الواضح، وأدمن حزنه في صمته ووحدته.

يناير - ١٩٩٩

الواجهـة

حمل ناصر حقيبة صيده العتيقة، وتوجَّه في سيارته إلـى البحر.. ملجأه الأثير والمعهود الذي يذهب إليه مساء كل ثلاثاء بعد صلاة المغرب. اكتشفه أيام دراسته الثانوية صديقاً ومأوى وصدر أمان. يقصده وحيـداً مُحمَّـلاً بهمومـه، ومتاعبـه، وأحزانه. أحياناً يفتح حقيبة صيده، يرمي بخيطه فـي البحـر، وفي أحايين كثيرة، يتكوم على صخرته، يشعل سيجارته، يأخذ نَفَساً طويلاً منها، يجوس الدخان صدره، ينفثه رصاصاً. يدخل صمته المظلم وحواره مع بحره.

في منطقة الشويخ، قبالة قصر السلام، أوقـف سـيارته، أطفأ أضواءها، وترجل. استقبله برد كانون، ريح سـكاكين تنفذ إلى العظم. لفَّ شماغه الأحمر حول رأسه، وسار نحو صخرته.

الليل أسود، والبحر أسود، ولا أحد سوى بعض السيارات المسرعة تقطع شارع الخليج العربي. أشعل سيجارته. ضيقٌ ما يضغط على قلبه. لن يجرب الليلة حظـه فـي الصـيد. خاطره مكدّر منذ الصباح، كأن طيراً أسود خفياً يتخبط فـي

قلبه عاجزاً عن الطيران.

على الغداء سألته زوجته :

"عسى ما شر ؟".

"لا أدري، أشعر بقلبي منقبضاً".

"هوّنها وتهون. الحمد لله على كل حال".

تلتقط أذناه ما يشبه أنيناً. يتلفت فيما حوله. لا أحد سوى الظلمة وأمواج البحر الغاضبة. جمّر رأس سيجارته الجديدة من أختها السابقة. تعوّد ألا يحمل علبة كبريت.

تجمّع ما يشبه الأنين، وتحوّل نشيجاً راعفاً اجتاح صخرته وحقيبته الساكنة وجمرة سيجارته وسكاكين رياح كانون، فدبَّ إليه خوف غامض.

"مسّاك الله بالخير".

مُتعباً جاءه الصوت، خرج البحرُ- صاحب الصوت- إليه، رجلاً عجوزاً ذا رأس شائب وصدر عار ومئزر مبلل يستر نصفه الأسفل.

سار البحر نحوه، فالتصق ناصر بصخرته، انضغطت سيجارته بين إصبعيه. خرج صوت ناصر بصعوبة من بين شفتيه :

"الدنيا برد".

"مزاحٌ دائم لقائي والريح".

هوَّن العجوز الأمر، واستراح بقرب ناصر :

"من زمان وأنا أفكر بالحديث معك".

أشعل حمد سيجارة جديدة، وقـدَّمها للبحر :

"تأخذ سيجارة ؟".

أهمل العجوز السؤال واليد المدودة نحوه، دفع فيما يشبه وجعاً :

"حزينٌ أنا".

تنبَّه ناصر. ثمة حركة غير عاديـــة شـملت الشـاطئ أمامه والظلمة والريح. بالكاد يرى وجه العجوز المغضـن. أمواج أسماك خرجت من الماء، زحفـت نحـو الشـاطئ، تجمعت تحت أقدامهما : هامور، بـالول، شـعم، زبيـدي، عندق، جرجور، نقرور، خنّاق، بياح، حاسوم.

هزَّ زحف الأسماك قلب ناصر وروحه. امتلأ الشـاطئ برءوسها المرتفعة من الماء، وبريـق عيونهـا المضـيئة، ونقيقها بتزاحمها.

"أحب أهل الكويت، أشتاق إليهم".

نزَّ عتبٌ مرٌ في صوت البحر :

"زمان، كنت لهم وكانوا لي. رجـالاً ونسـاء. للرجـال

الغوص والسفر، السيف والخشب والرزق، الملتقى والرحلة والمجهول، الحلم الخوف والليل والغناء والصفقة و: (الهولو واليامال).. الله !".

أنصت ناصر وسيجارته والأسماك والشاطئ والريح والظلمة لشكوى البحر ووجعه :

"نساء وبنات الديرة كنَّ يأتين إليَّ كل صباح، أصواتهن الأليفة، ضحكاتهن، سوالفهن، أسرارهن، انتظارهن المحرق للأحبة، ألوان أثوابهن، رائحة أجسادهن المخضبة، حنة شعورهن، لعب أطفالهن، وحلو غنائهن :

(توب توب يا بحر، أربعة والخامس دخل) زمان! "عاد النشيج إلى صوت البحر، وضجَّ الشاطئ بنحيب الأسماك.

"هجرني أهل الديرة. أداروا وجوههم عني. خطفهم النفط الأسود، وألهاهم الدينار !".

ارتبك ناصر لا يدري بماذا يرد. أشعل سيجارة جديدة. ما عاد يشعر بالبرد.

نهض البحرُ. أطلق آهة طويلة.

خلَّف البحرُ البحرَ، أعطاه ظهره،

مشى صوب شارع الخليج العربي هاجراً ماءه وحضنه.

علا عويل الأسماك :

"تعال !".

ناحت رمال الشاطئ :

"لا تتركنا !".

البحر رجل عجوز حزين ذو رأس شائب وصدر عار ومئزر مبلل يستر نصفه الأسفل، اجتاز شارع الخليج العربي مخلِّفاً عويل الأسماك ونواح رمال الشاطئ وحسرة ناصر. أكمل خطوه باتجاه بيوت المدينة الهادئة.

في ذلك المساء، تحول البحرُ، صار حديث ديوانيات عابر.

في ذلك المساء تداعى أعضاء المجلس البلدي إلى اجتماعٍ عاجل، وتدارسوا الأمر.

وحين أفاق أهل الكويت من نومهم صباحاً، لم يجدوا البحر مكانه.

سوَّرت الشاطئ مبان خرسانية، أخفت عن أهل الكويت وجه البحر الباسم. استبدلت به واجهات مطاعم غربية اللباس والنكهة.. غادر البحر دونما رجعة.

يناير - ١٩٩٩

شاشة

تسرع بخطواتها، تدخل سيارتها. تسحب الباب بضيق خلفها. تتقطع في الحال ضجة الشارع، والرذاذ الذي يلاحقها :

"أف".

تجلس أمام شاشة كمبيوتر السيارة :

"أذهب إلى الفندق، ربما يمرُّ عليَّ الليلة".

تختار برنامج سيرها. تضغط أحد أزرار التحكم. فتتحرك السيارة.

مسترخية هي، تنقل بصرها من خلف الزجاج، وبعد برهة تهمس لنفسها :

"أشاهد فيلم الفيديو أفضل".

تتناول جهاز التحكم من بعد. تنتقل تجلس متمددة في المقعد الخلفي. تضغط زراً، فيظلم زجاج السيارة، وزراً آخر فتتدلى من السقف شاشة بيضاء، ويدور الفيلم. تغيب هي داخل أحداث الفيلم. تنعزل عن عالم الطريق، ووحدها

السيارة تسير وفق برنامج الطريق المعد.

*****

تترجل من السيارة. ينفتح أمامها مدخل الفندق من تلقاء نفسه. تخطو داخله. يحملها شريط أرضي نقال. يضعها أمام المصعد. تضغط زر طابق غرفتها. تغمض عينا وتفتحها، فيقف المصعد. تخرج. يحملها شريط نقال تغطي سطحه سجادة ذات مربعات شطرنجية سوداء ورمادية، يضعها أمام باب غرفتها. تضغط بطبعة إبهامها على زجاجة صغيرة فوق أكرة الباب، فينفتح الباب، وفي اللحظة ذاتها تضاء أنوار الغرفة، وتتبعث الصور المجسمة من شاشة التلفزيون.

تخطو داخلة، فينغلق الباب خلفها. تعلق حقيبة يدها على المشجب. تعانق أنفها رائحة نظافة. تتفقد ببصرها زوايا الغرفة، بينما يدها ترخي حزام تنورتها، تفلت :

"مللت هذا، كل شيء كما هو جامد ونظيف ومرتب".

تتخلص من قميصها. تفك أزرار التنورة. تعبث بحمالة صدرها. وبضيق تسحبها، نافخة ضيقها :

"أف".

تدعك ثدييها، تنزلق عن ردفيها التنورة. تتكوم عند أقدامها. تلقي بنفسها على السرير.

وحدها وطنين الصمت، ورائحة النظافة. تتقلب على ظهرها فيصبح وجهها في مقابلة السقف. تسرح في لا شيء "باردٌ، خال من أي نقوش أو حياة هو السقف، وكذلك أنا".

تحدث نفسها، يبرق بها هاجس :

"ربما اتصل هو".

تسرع. تستدير. ترفع رأسها. تشخص ببصرها : على المنضدة قرب رأسها شاشة صغيرة مضاءة. تقرأ عليها عبارة : اتصلت السيدة تاء. تخبو نظرتها، تعود تتزرع الخيبة في عينيها.

*****

تقف مستسلمة في البانيو. تتبعث المياه الدافئة. تستند بظهرها تلامس صحيفة معدنية ممغنطة تتكون من آلاف الخلايا الصغيرة. تحتضنها الصحيفة، وتتشكل آخذة انحناءات ظهرها وإليتها. ينبثق من الجانب ذراعان معدنيتان تتحركان بهدوء. تدلكان جسدها برغوة سائلة. تمران على جميع انحناءاته وزواياه. تستدير هي، تكمل الذراعان حركتهما. وحين تتوقفان، يندفع رشاش قوي من الماء، يزيل عن جسدها الرغوة. يدغدغها بلذة. ينعشها.

تخطو خارجة من البانيو، تدخل صندوق التنشيف. يضجُّ تيار هواء معطر، وبعد برهة تخرج لتقف عارية أمام المرآة. تتأمل جسدها. تتناول فرشاة شعرها. تبدأ تسريح شعرها. تفتر حركة يدها. ترتخي أصابعها، تقترب أكثر من المرآة، تكاد تلتصق بها.

"بدأت أكبر".

تحدِّث نفسها بحسرتها. تتفحص هالة تحت عينيها وخطوط جبهتها. تلوي شفتها، تتحدر لرقبتها، تتوقف عند صدرها. تخطو إلى الوراء خطوة. تضع راحة يدها تحت أحد ثدييها، وكأنها تزنه. رخوٌ يستقر على راحتها، وضعيف صوتها :

"تهدل".

ترفعه قليلا. تضغطه. يندفع متكوراً صلباً إلى الأمام :

"هكذا كان".

تبقى لبرهة متجمدة بوضعها. يطلُّ الانكسار في نظرتها. تترك ثديها، وبآلية تعود تمشط شعرها.

*****

تجلس أمام جهاز التلفون المتصل بشاشة. تضغط رقماً. تنبعث على الشاشة صورة غرفة، وطفلة تشاهد التلفزيون :

"هالو مامي".

"هالو حبيبتي، أما زلت مستيقظة حتى الآن ؟".

تسكت الصغيرة، فتبادر هي :

"هيا، هيا انهضي اذهبي لغرفتك".

تنهض الصغيرة. تلوح على الشاشة صورة امرأة قادمة :

"هالو مدام".

تتجاهل هي تحيتها، تسألها بنبرة حادة :

"لماذا (س) مستيقظة حتى الآن ؟".

"أصرت هي على مشاهدة التلفزيون".

"ودروسها ؟".

"راجعتها مع الكمبيوتر".

"حسنا، الحقي بها الآن".

قبل أن تسمع رد المرأة، تعيد سماعة التلفون. فتختفي الصورة، وينقطع الصوت، ويسرع انزعاج مبهم يلف وجهها.

*****

تفتح خزانة ملابسها، تستخرج بعض ثيابها. تنحني ترفع صندوق مجوهراتها. تجرب بعض حليها. تتأمل نفسها في المرآة. ترتدي أحد فساتينها. تخلعه، ومتململة تسأل لا أحد :

"متى سأراك ؟".

تقصد الشاشة :

"سأكلمها".

تضغط رقماً. تضيء الشاشة، لكن دونما صورة.

"ألو".

"نعم".

يصلها صوت صديقتها رائقاً، وهي :

"افتحي الشاشة".

"أهلاً".

"افتحي الشاشة يا..".

ترتفع ضحكة الصديقة الماكرة :

"آسفة".

"ماذا ؟".

تعود الأخرى لضحكتها، تقول هي محاولة إخفاء انكسار حسها :

"آه فهمت".

تنهى المكالمة.

*****

"مضى أسبوع ولم يتصل".

تخلع عنها قميص نومها :

"لست أعلم أين هو".

تتعرى :

"كلب".

تلتفت نحو الشاشة، تدير الراديو :

"لم أعد أحتمل".

تنساب موسيقى لموزارت :

"كل شيء صار مملاً."

تطفئ الأنوار :

"أكاد أجن وحدي".

ترمي بجسدها العاري على السرير، تعتصر نفسها متأوهة :

"أف".

يرن التلفون. يخفق قلبها. بلهفة تهرع نحو السماعة، تقول :

"آلو".

"مساء الورد".

يصلها صوته، فتدب فيها الرغبة، وتتصنع الهدوء، ترد :

"مساء العتب".

"افتحي الشاشة".

"لحظة".

تسحب الغطاء تخفي بعض جسدها، تضغط زراً فتضـــاء الشاشة، وتنبعث صورته مستلقياً على فراشـــه، ومراوغـــا صوته :

"مشتاقين".

"عيَّار".

"أنا ؟".

يسأل هو بخبثه، وصوتها :

"طبعاً، أين كنت طوال الأسبوع ؟".

"العمل".

"أي عمل ؟".

ترفس الغطاء عنها، فيبعث هو مستطيباً صورتها علـــى الشاشة :

"جميل".

تتقلب صوبه، فيصرخ :

"عمري".

بخبث تفحّ هي :

"ما بك ؟".

يقفز من فراشه. يقابلها، فتنفجـــر بضـــحكتها، ونشـــوان
ينطلق صوتها تسأله :

"ما هذا ؟".

ونزقاً يردُّ :

"ألا تعرفين ؟".

٢٩ – آب / أغسطس – ١٩٩١

"أبناء أغنى الأسر تقدموا لخطبتي، لكـن قلبـي المغفـل اختارك أنت".

كررت دانة بحرقة.

قال أنور :

"يبدو أنك نادمة".

ما التفتت لجملته، أكملت مندفعة :

"حين تزوجتني كنت تعلم أنني ابنة تجار".

"وكنتِ تعرفين قناعاتي".

فجَّرت جملته بركانها، صرخت به :

"قناعاتي، قناعاتي، كلام فـاض. راعـي الراتـب بـلا مراتب. جميع أزواج صديقاتي لهـم شـركاتهم ومحلاتهـم الخاصة، لستُ أقل منهن. بابا وأنا قررنا وانتهى الأمر".

تنازل العم عبد المحسن والد دانة لأجل خـاطر عيـون ابنته، واتصل بأحد أعضاء مجلس إدارة مجمَّع "الفـانوس"، اتفق معه على حجز محل في موقع ممتاز لزوج ابنته أنور.

لم يدم الاتصال الكريم أكثر من ثـلاث دقـائق، ولكنـه خفَّض خلو المحل من أربعين ألف دينار إلى عشرين ألـف دينار.

أكمل العم عبد المحسن فضله وكرمه لأجل خاطر عيون ابنته، وأتعب نفسه، كلَّم أحد أصدقائه في مجلس إدارة البنك الديناري، فسهَّل حصول أنور على قـرض خـاص بقيمـة ستين ألف دينار دونما فوائد أو ضمانة أو كفالة.

هكذا انطفأت نيران غضب دانة، وهدأ بالهـا، وعـادت الابتسامة إلى وجهها، وبدأت التحضير لـديكورات وأثـاث ودعاية وتجهيز بضاعة محل "ميرشـنت دوتـر" للملابـس النسائية. اتفقت مع أحد مكاتب توريد العمالة، اشترطت عليه "فتاتان فلبينيتان، جميلتان، تجيدان اللغة الإنجليزية بطلاقـة، براتب خمسين دينارًا شهرياً".

تصادمت مع أنور :

"أنتَ منْ سيدير المحل".

تدخل العم عبد المحسن لأجل خاطر عيون ابنته :

"توكل على الله يا أنور، لا ترفس النعمة".

الفلبينيتان روز وساني وصلتا في الوقت المحدد.

وزعت دانة بطاقات الدعوة المذهبة، تمَّ الإعـلان عـن

حفل افتتاح محل "ميرشنت دوتر".

توافدت صديقات دانة بنات الذوات، بنظراتهن الفضولية وابتساماتهن المطاطية وعروض أزياء ملابسهن وعطورهن الفوّاحة، وباقات الورد.

مدام دانة ابنة العم عبد المحسن قامت بقصّ شريط الافتتاح الأحمر أمام كاميرات الصحافة المحلية ومصوري الفيديو .

بدأ أنور دوامه المسائي في محل "ميرشنت دوتر".

حين انقضى الأسبوع الأول، صار أنور يجلس مع روز وساني وسط أزيز هواء التكييف البارد، يتفرج على مانيكان الواجهة بجسدها المصقول وملابسها الفاضحة.

حين انقضى الشهر الأول، صار أنور يجلس بعض الوقت مع روز وساني وأزيز هواء التكييف البارد، يتفرج على مانيكان الواجهة، وما يلبث أن يتمشى بعض الوقت في المجمّع المزدحم بالمتفرجين من أبناء الذوات، والمتطفلين من غير أبناء الذوات، الذين يسهل التعرف عليهم.

قبل انقضاء الشهر الثاني، لاحظ أنور أن أصحاب باقي المحال لا يختلفون عنه، يجلسون مع أزيز هواء التكييف البارد، أو يخرجون يقفون أمام أبواب محالهم، يرسلون

نظراتهم المستطلعة في وجوه المارة.

مع بداية الشهر الثالث، صار أنور يمر مـــروراً عـــابراً على روز وساني وهواء التكييف البارد، ويمضـــي معظـــم الوقت متجولاً في أدوار المجمع كباقي أصـــحاب المحـــال والمتفرجين.

في مساءٍ هادئ، بينما أنور ساهٍ، وإذ بمانيكان الواجهـــة تهتز قليلاً، تدبُّ الحياة في لحم جســـدها الـــبض، تتمطـــى بكسل، ترفع ذراعها، فيظهر شعر إبطها الحي.

تهدَّل فك أنور ونظرته.

تركت المانيكان مكانها في الواجهة.

التفتت إلى أنور بوجهٍ مغرٍ، تخطت عتبة المحل خارجة.

اندسَّت تتمشى، ضاعت بين المتفرجين.

فبراير - ١٩٩٩

أبو عجاج طال عمرك

مشهد أول : فتحت الإشارة

كان أبو عجاج جالساً لحظة شاهد رئيس القسم قادماً. نفض عنه ضيقه وطول انتظاره، هبَّ واقفاً. أسرَّ لنفسه: "هذا هو.. وصل أخيراً". وبطريقة آلية اعتادها راح يردد: "يا رب، يا ميسر الأمور يا الله.. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم..".

دخل رئيس القسم إلى غرفة مكتبه، دون أن يلتفت إليه، فدلف أبو عجاج وراءه. ما إن استوى رئيس القسم خلف مكتبه، حتى بادره رافعاً يده اليمنى بحيث استقرت سبابته بشكل مائل قرب صدغه :

"صبحك الله بالخير يا بو عصام".

رفع رئيس القسم نظره إليه.. استغرب منه أن يخاطبه كما لو كان بينهما معرفة سابقة.

"أهلا".

رد أبو عصام فيما يشبه ضيقاً. لم ترقه هيئة أبي عجاج، ولا طريقة دخوله عليه، ولا تحيته العسكرية :

"أنا المراسل الجديد طال عمرك".

"نعم ؟!".

صدرت عن أبي عصام، كأنه أراد التأكد ممـــا يســـمع. بينما راح يتفرس بوجه أبي عجاج. وقد زاد انزعاجه منه :

"أنتَ المراسل الجديد ؟".

حاول أبو عصام إخفاء هجمة غضبه المفاجئ، والاحتفاظ بهدوئه ريثما يتأكد من الأمر :

"من الذي بعثك إلى هنا ؟".

"الإدارة".

"أي إدارة ؟".

"المدير".

استفز أبو عجاج بردوده الجاهزة أبا عصام. فصرخ به :

"أي مدير ؟".

"العم بو سعود طال عمره وعمرك".

أبو عجاج رجل مسن، لكنه يبدو محتفظاً بقوته، وحيويـــة حركته وجسمه. أقرب إلى القصـــر منـــه للطـــول. لحيتـــه صغيرة مخضبة بالحناء. نظراته عميقة يصعب التنبؤ بمـــا خلفها. شاربه خفيف شائب. وأكثر ما يلفت النظر في وجهه تلك الأسنان الصفراء المتناثرة بلا نظام، وحركة لسانه الذي

لا يهدأ. إضافة لمسبحة بحبات صفراء لا تفارق يده :

"انتظر في الخارج".

أشار أبو عصام بيده لأبي عجاج. تحرك الآخر بخطوات بطيئة، وقبل أن يخرج استوقفه صوت أبى عصام :

"ما اسمك ؟".

"نزال عجاج".

هز أبو عصام رأسه، فأضاف الرجل :

"أبو عجاج طال عمرك".

"حسنا".

انطلق صوت أبي عصام بنفاد صبره، يستعجل أبا عجاج الخروج.

*****

"نعم هو المراسل الجديد".

جاء رد الإدارة على أبي عصام، فاستغرب وتساءل:

"كيف تم ذلك ؟".

ودمدم مستخفاً يحدّث نفسه :

"أبو عجاج !".

سرح لبرهة، وبعدها دفع بكرسيه الدوار إلى الخلف:

"سأقابل بو سعود، القسم بحاجة لمندوب ومراسل، وبعد كل

كتبي، وطلباتي المتكررة، يأتي أبو بطيخ !".

فتح باب غرفته، ففاجأه أبو عجاج يهبُّ واقفاً في وجهه، يرفع يده بتحيته العسكرية. ويخاطبه أبو عصام. أشار إليه :

"اجلس.. انتظر ريثما أعود".

*****

بيَّن أبو عصام لمدير الإدارة أن القسم بحاجة ماسة إلى مندوب ومراسل في شخص موظف واحد، وأن هذا الرجل المسن، بهيئته وأسنانه المنثّرة ومسبحته لا يصلح، ولن يستطيع القيام بهذا العمل. لكن مدير الإدارة قاطعه :

"دع عنك هيئته وأسنانه".

"لكن..".

"الرجل سيعمل مراسلاً وليس عارض أزياء".

ظل أبو عصام ينظر لمدير الإدارة، وصوت الأخير مقرراً :

"لنعطه فرصته".

وينهي المدير المقابلة. خاطب سكرتيرته :

"هيام، جهزي ملف الاجتماع".

*****

مرَّ أسبوعان. كان أبو عجاج خلالهما متواجداً طوال

الوقت، وقائماً على خدمة الجميع. لكن شيئا ما بـدأ يلفـت نظر أبي عصام.. شاب تدل هيئتـه علـى أنـه هنـدي أو باكستاني، أضحى يظهر بصحبة أبي عجاج أينمـا ذهـب. يجلسان طوال الوقت يتهامسان، بينما تلوح على أبي عجاج ملامح الجد وهو يحاول إيصال فكرة ما للشـاب. وإذا مـا أرسل أبا عجاج إلى أي جهة، تبعه الآخر كظله.

في أحد الأيام طلب أبو عصام أبا عجاج. دخـل عليـه بخطواته الوئيدة، وتحيته العسكرية.

استفسر منه عن الشاب الذي يبقى طوال الوقـت جالسـاً إلى جواره. اضطرب أبو عجاج، دفع يقول :

"يساعدني طال عمرك".

تفرس أبو عصام بوجه أبي عجـاج مسـتغرباً إجابتـه، سأله:

"ماذا ؟".

"شاب مؤدب وخدوم".

"هذا لا يصح".

ارتفع صوت أبي عصام موبخاً أبا عجاج.

"لماذا طال عمرك ؟".

قالها أبو عجاج بينما كان ينظر في عيني أبـي عصـام

مباشرة. ظلا لبرهة على وضعهما هذا.. حدّث أبو عصـــام نفسه :"ابن الكلب، عجوز الحيلة، يتصنع الجهـــل والطيبـــة أمامي".

"لا أريد لهذا الشاب أن يحضر معك غداً".

"اسمه إقبال طال عمرك، مسلم باكستاني".

"لا دخل لي بمن يكون، هيا تفضل".

أشار أبو عصام لأبي عجاج ناحية الباب. ظلت نظـــرات أبي عجاج باردة. ومن بعيد خرج صوته :

"حاضر طال عمرك".

رفع أبو عجاج يده اليمنى حتى لامست سبابته صـــدغه. أدى تحيته العسكرية :

"السلام عليكم".

لحظة انغلق الباب خلفه، أفلت أبو عصام متضايقاً :

"إلى جهنم".

*****

في صباح اليوم التالي، وحين كان أبو عصام يهمُّ بدخول غرفة مكتبه، شاهد أبا عجاج وبجانبه إقبال جالسين كعادتهما يتبادلان الحديث :

"ابن الكلب".

أفلت أبو عصام يحدّث نفسه :

"عجوز جهنم".

أشار لأبي عجاج أن تعال، ودخل منفعلاً لغرفته.

على طريقته دخل أبو عجاج بهدوء، حيا أبا عصام :

"صبحك الله بالخير يا طويل العمر".

أدى تحيته العسكرية، ووقف وكأن شيئاً لم يكن :

"لماذا أحضرت إقبال معك ؟".

"يساعدني ويساعدكم طال عمرك".

"ليغادر حالاً".

ارتفع صوت أبي عصام محتداً.

"لا تزعج نفسك يا طويل العمر. لن يكون إلا ما تريد".

حاول أبو عجاج تهدئة أبي عصام.

"هيا، اصرفه فوراً".

ظل أبو عجاج لبرهة في مكانه، وكأنه يتعمد أن يـــؤجج غضـــب أبي عصام، بينما ارتفع صراخ الآخر :

"هيا، تحرك. ألا تسمع ؟".

"حاضر طال عمرك. السلام عليكم".

فح بكلمته، واستدار يخرج متباطئاً، ومسبحته معرقة في يده.

*****

بعد هذه الحادثة بيومين، وبينما كان أبو عصـــام جالســـاً عند نايف موظف الصادر، إذا بإقبال يدخل حـــاملاً كيســـاً. قدمه لنايف، وانسحب مسرعاً دون أن يرفع بصـــره بوجـــه أبي عصام :

"ما هذا ؟".

"سندويتش".

أجاب نايف، فارتسمت الدهشة على وجه أبي عصـــــام، لكـــن نايف أكمل :

"يعجبني أبو عجاج، ملعون.. استقدم إقبال علـــى كفالتـــه من الباكستان، يعطيه خمسين ديناراً في الشهر، ويقبض هو خمسمائة دينار من الوزارة".

غطت الدهشة وجه أبي عصام، وصوت نايف :

"إقبال طيب، طوال اليوم يخدم الجميع".

انتبه نايف إلى سكوت أبي عصام، فسكت هـــو بـــدوره، وبعد برهه أفلت يخاطب أبا عصام ماداً يده بالكيس :

"تفضل، أتأكل معي ؟".

*****

في نهاية الدوام، بينما أبو عصام متجـــه لســـيارته فـــي موقف الوزارة، لمح إقبال واقفاً وحده. وقبل أن يخرج مـــن

الموقف، تقابل مع أبي عجاج داخلاً يقود سيارته التاكسي :

"ابن الحرام".

قالها أبو عصام وأكمل بسيارته .

كانت إشارة الموقف الضوئية حمراء عندما حاذى أبو عجاج بسيارته أبا عصام، وراح يؤشر له. أنزل أبو عصام زجاج نافذته، فرفع أبو عجاج يده بتحيته العسكرية مبتسماً، وصوته :

"مساك الله بالخير يا طويل العمر".

لحظتها فتحت الإشارة.

*****

مشهد ثان : منتشيا يتحرك

أعلنت الشركة عن حاجتها لصبي شاي وقهوة، وبعد ثلاثة أيام تجمع لديها ملف يحوي طلبات راغبي العمل. خلافاً لجميع الطلبات التي كانت لعمالة عربية أو آسيوية، استوقف المديرة الإدارية : الآنسة فاتن، ابنة صاحب الشركة، طلب السيد نزال عجاج. راحت تدقق في صورته، " شماغه" الأحمر وعقاله، ولحيته الصغيرة، ونظراته الحادة. طلبت سكرتيرتها. ناولتها طلب العمل :

"اتصلي بصاحب هذا الطلب، يحضر لمقابلتي في

الخامسة مساء".

"حاضر".

*****

كانت الآنسة فاتن تتصفح إحدى مجلات الأزياء، عنـــدما وصلها صوت السكرتيرة عبر التلفون الداخلي :

"الرجل صاحب الطلب موجود".

نظرت فاتن للساعة المذهبة التي أمامها :

"ينتظر ريثما أطلبه".

*****

انفتح الباب. ظهر أبو عجاج. للوهلة الأولى تراءى لفاتن أنه قصير :

"مساك الله بالخير يا بنت الأجاويد".

قال جملته مركزاً نظره على وجهها، رافعاً يده اليمنـــى بحيث استقرت أصابعه المضمومة وبشـــكل مائـــل قـــرب صدغه.

"مساء النور".

لفت نظر فاتن لحيته المحناة، وأسنانه الصفراء المتناثرة، وطريقة كلامه، وللحظة حضرت فيها ضحكتها، أشارت لـــه بالتقدم :

"تفضل".

"ما خاب منْ شاهد هذا الوجه الطيب".

قال جملته قبل أن يجلس، فارتسمت ابتسامة فاتن علـــى وجهها، أفلتت :

"شكراً".

جلس قبالتها هادئاً، يمسد حبات مسبحته بصمت.. بدا لها واثقاً بنفسه. لحيته وحركة لسانه التـــي لا تهـــدأ، ومـــا إن التقت عيونهما حتى بادرها :

"حيا الله وجه الخير والكرم".

عالجت تحبس ضحكة تلح عليها، أجابته :

"أهلا وسهلاً.. ما اسمك ؟".

"أبو عجاج طال عمرك".

"أتعرف طبيعة العمل المطلوب ؟".

"نعم يا طويلة العمر".

عادت تنظر إليه، فعادت ضحكتها تهيض بها. وصوته :

"المطلوب عامل شاي وقهوة".

أشارت برأسها تؤكد كلامه، عادت تسأله :

"والراتب ؟".

أحست أن رغبتها في الضحك قد انحسرت.

"كما تشاءون يا بنت الأكابر".

"أعندك أسرة ؟".

"أربع نساء، وعدد لا أعرفه من الأبناء".

"ماذا ؟!".

شهقت بضحكتها، فأضاف بزهو هو :

"نعم يا بنتي.. أربع على سنة الله ورسوله، الأخيرة تزوجتها قبل شهر".

كفكفت ضحكتها، قالت له :

"طيب، سنعطيك راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً".

ظل ينظر إليها بوجه خالٍ من أي تعبير. مرت فترة صمت بينهما، وصوته :

"بل مئتان يا طويلة العمر".

رفعت نظرها إليه مستغربة، فأكمل :

"للقديمات مائة، وللجديدة مائة".

انفجرت تضحك. مدت يدها لتتناول ورقة كلينكس، تجفف دموعها :

"طيب".

وتخاطب سكرتيرتها. ارتفع صوتها :

"سهير، تعالي لو سمحت".

دخلت السكرتيرة، فناولتها فاتن الطلب :

"اعملي لأبي عجاج أمر تعيين".

والتفتت تكلم أبا عجاج :

"متى تبدأ العمل ؟".

"الآن طال عمرك".

وثانية عادت تخاطب السكرتيرة :

"ابتداء من الغد".

"تفضل".

أشارت له أن يتبع السكرتيرة. نهض من مقعده، رفع لها يده بتحيته العسكرية، مركزاً عينيه في عينيها :

"مشكورة، يا طويلة العمر".

******

بعد مرور أكثر من أسبوع على دوام أبي عجاج في الشركة، لاحظت فاتن أن شابا يبدو عليه أنه هندي بدأ يظهر بالقرب من أبي عجاج دائماً. طلبت السكرتيرة لتستفسر منها، وصوت الأخيرة :

"لا أعلم، أشاهدهما معاً طوال اليوم، وفي نهاية الدوام يغادران معاً".

بعد فترة أخبرت السكرتيرة، الآنسة فاتن أن أبا عجاج لم يعد يداوم، وأن الشاب الهندي هو الذي يقوم بكل شيء.

"ما اسمه ؟".

"راجو".

ظلت فاتن ساكتة، فأضافت السكرتيرة :

"عفواً آنسة فاتن، الشاب الهندي أنظف من أبي عجاج في عمله".

هزت الآنسة فاتن رأسها، وصوت السكرتيرة :

"كما أنه يتكلم الإنجليزية".

لم تعلق فاتن.

*****

الثامنة والنصف صباحاً. الآنسة فاتن تصل إلى الشركة. تدخل فيقابلها أبو عجاج في الممر :

"صبحك الله بالخير يا طويلة العمر".

صبحها رافعاً يده اليمنى بتحيته العسكرية :

"صباح النور".

ردت عليه، وأكملت طريقها لمكتبها. وبعد دقائق دخل عليها أبو عجاج حاملاً الصينية وعليها كوب النسكافيه. اقترب بحذر من المكتب وضع الكوب، واستدار ليخرج،

وصوت فاتن :

"منذ مدة لم أرك".

"أنا تحت أمرك يا طويلة العمر".

قرأ الضيق في جملتها. رفع بصره إليها، فرآها تنظر إليه، فأضاف وجلاً :

"هل قصر راجو بأي شيء ؟".

ظلت ساكتة، وبقي هو متسمراً في مكانه، وصوت فاتن مهادناً :

"راجو جيد".

جملة فاتن أدخلت السرور إلى قلبه. تحرك يهم بالخروج، فلحقه صوتها :

"عليك أن تأتي بين فترة وأخرى".

"أنا تحت أمرك يا طويلة العمر".

قالها أبو عجاج بحس فرح، ومنتشيا تحرك، خطا خارجاً.

*****

مشهد ثالث : رويداً أكمل طريقه

"صبحك الله بالخير يا طويل العمر".

رفع أبو عجاج يده بتحيته العسكرية، يحيي مدير الإدارة،

ظل واقفاً في مكانه :

"تفضل بو عجاج".

وصله صوت أبي سعود. خطا أبو عجاج بوجل، سأل نفسه :".. ماذا يريد مني ؟ اللهم اجعله خيراً. ليس وراء هذا الوجه إلا المتاعب". راح يختلس النظر لأبي سعود، الذي بدا مشغولاً بترتيب بعض الأوراق على مكتبه :

"حيا الله بو عجاج".

انطلق صوت أبي سعود يحيي أبا عجاج دون أن يرفع بصره إليه :

"تحيا وتدوم يا طويل العمر".

ردَّ أبو عجاج وقد تأكد أن في الأمر شيئاً :"يحييني بهذه الطريقة يا الله سترك".

رنَّ التلفون، وصوت أبي سعود:

"ألو".

"...".

"أهلاً، أهلاً، يا مرحبا".

"...".

"بخير".

رأى أبو عجاج كيف أن ملامح أبي سعود قد تهللت :"مع

من يتكلم ؟ لا بد من أن يكون مسئولاً أعلى منه".

" نعم يا طويل العمر ".

"...".

"حاضر طال عمرك".

"...".

"تأمر".

"...".

"الليلة سيكون معي".

"شغل سهرات". أسرَّ أبو عجاج نفسه.

"حاضر".

"...".

"الله يسلمك".

أنهى أبو سعود المكالمة، فعادت لأبي عجاج هواجسه :

"أبو عجاج".

قالها أبو سعود، وعاد ينشغل بترتيب أوراقه.

وحدها حبات مسبحة أبي عجاج كانت تتحـــرك بهـــدوء.

اعتدل أبو سعود في جلسته، رفع نظره لوجه أبي عجـــاج، قال :

"المدام تحتاج لسائق خاص لها يا أبا عجاج".

خلا وجه أبي عجاج من أي تعبير، فأكد أبو سعود :

"تريد للبيت سائقاً ممتازاً وأميناً".

لم يعرف أبو عجاج بماذا يرد. وصوت أبي سعود :

"لماذا أنت ساكت ؟".

"حاضر يا طويل العمر".

قال أبو عجاج وشيء من أسى يلحق بحسّه.

"سيكون اسمك ضمن كشوف العلاوات القادمة".

علّق أبو سعود محاولاً فك الضيق عن وجه أبي عجاج.

"مشكور يا طويل العمر".

"تأخذ السائق رأساً إلى البيت، يبقى لخدمة المدام".

صار كل شيء واضحاً لأبي عجاج. حدّث نفسه :

"المدير يريد سائقاً لزوجته على حسابي. ابـــن الكلـــب. يغض النظر عن عدم دوامي في الوزارة، وأنا أرتـــب لـــه سائقاً لزوجته".

"متى سيكون السائق عندنا ؟".

ارتفع صوت أبي سعود سائلاً.

"سأرتب الأمر يا طويل عمرك".

"المدام تريده مساء اليوم".

تلكأ أبو عجاج قبل أن يدفع :

"إن شاء الله".

"حسناً، لدي اجتماع الآن".

نهض أبو عجاج، لم يؤد تحيته العسكرية، اكتفى يقول :

"السلام عليكم".

"هلا أبو عجاج".

تحرك أبو عجاج صوب الباب، وصوت المدير يلحقه :

"لا تنس، نريده أميناً".

"حاضر طال عمرك".

وبهدوء أكمل أبو عجاج طريقه.

******

مشهد رابع : بسلامة أبي عجاج

الثانية ظهراً. ركب آخر العمال. أغلق الباب خلفه، فانطلق أبو عجاج بسيارته التاكسي. إقبال وراجو جلسا بجواره، بينما جلس كل من أعظم ونواز وخان، في المقعد الخلفي :

"إقبال خمسون، وأعظم خمسون هذه مائة.. راجو ونواز، مائة ثانية، وخان خمسون، يصبح المجموع مئتين وخمسين ديناراً.. يجب أن أرسل أنطون لبيت ابن الكلب.. المدام تحتاج لسائق خاص، يلعن أبوك على أبي المدام".

كان أبو عجاج يحدث نفسه، بينما تعالت رطانة العمـــال الهنود والباكستانيين تملأ جو ســيارة التاكسي المنطلقة.

*****

توقف أبو عجاج بسيارته قبالة المطعم الباكستاني، كعادته كل يوم :

"هيا".

خاطب راجو.

راح راجو يتفاهم وزملاءه بخصوص غدائهم.

"هيا يا راجو الزفت".

كرر أبو عجاج بانزعاج. فتح راجو الباب وترجل، فعاد أبو عجاج لحسابه :

"إقبال وأعظم مائة، راجو ونواز وخان مائة وخمســون، يصبح المجموع مئتين وخمسين. وأنطون خمسون، يصـــبح المجموع ثلاثمائة دينار.. سبعمائة وخمسون من الــوزارة، ومئتان من الشركة، وثلاثمائة، يصبح المجموع الكلي ألــف ومائتين وخمسين.. مائة وخمسون من البنك، وثلاثمائة.. بل لنقل مئتان من الســيارة، يصــبح المجمــوع الكلــي ألــف وستمائة".

أغلق راجو الباب خلفه فقطع على أبي عجــاج حســابه.

التفت أبو عجاج إلى حيث يجلس راجو، كما لـو أنـه أراد التأكد من جلوسه مكانه. أدار المحرك. انطلقت السيارة، وثانية عادت الرطانة مخلوطة برائحة الأكل.

*****

"أدفع لهم مرتبات ثلاثمائة دينار، أستلم سبعمائة وخمسين، وثلاثمائة وخمسين، ألف ومائة، مائتين.. ألف وثلاثمائة، ومائة وخمسين من البنك.. ألف وأربعمائة وخمسين".

وحده أبو عجاج كان منشغلاً في حساباته، بينما انهمك الجميع في الأكل، وسط رطانة مرحة. ضحك نواز عالياً فكاد يغصّ بلقمته. اهتز يسعل. عم الضحك الجميع. انتبه أبو عجاج فصرخ بهم :

"بهدوء يا كلاب".

لم يلق رداً من أحد، فعاد لحسابه :

"ألف وأربعمائة وخمسون، حيوانات أنسوني إلى أين وصلت في الحساب. أبدأ من الأول : ثلاثمائة من هؤلاء الزفت، سبعمائة وخمسون، وثلاثمائة وخمسون، ألف وأربعمائة. ألف وأربعمائة، ومائة وخمسون من البنك، ألف وخمسمائة وخمسون، ومائتان من السيارة، المجموع الكلي

ألف وسبعمائة وخمسون دينارا شهرياً".

أطلق أبو عجاج زفرة كما لو أن حملا ثقيلاً يرزح على صدره :

"ثلاثمائة دينار أصرف عليهم كل شهر، عساهم بالماحي".

التفت إليهم. مازالوا يأكلون، وبينه وبين نفسه ردد :

"كلوا عساه بالسم الهاري".

وغير مبال أكمل طريقه.

تشرين ثاني - نوفمبر - ١٩٩١

خيمة بني همّام

ركز الراوي نفسه في صدر الخيمة المكيفة. مسَّد لحيتـــه الصفراء المثلثة، أدار المسواك في فيه، طيّر خرزتي عينيه حول المجلس، يتفقد مريديه. تأكد شماغه وعقالـــه، أحســـن هندامه. تحلّق حوله السمّاع، ورائحة القهوة العربية والهيل، ورنة الفنجان. تنحنح، وقال :

"يا سادة يا كرام، صلوا على سيدنا مُحمد نبي الأنام".

وقبل أن يسمع الصلوات، أكمل مرحباً، هتف :

"يا هلا، يا هلا بضيوف خيمة بني همام".

تناول جهاز التحكم عن بُعد، أضاء شاشة كبيرة، ضغط مفتاح"الستلايت " تنقّل بين المحطـــات الفضـــائية، وأخيـــراً استقر على محطة الدخان. تلفّت إلى سمّاعه الحضور، وبدأ حديثه:

"الليلة يا سادة يا أسياد، سنُتابع أحداث حكاية الصبـــيّة نعناع. ولكن، قبل البدء أرجو إغلاق أجهزة الهاتف النقـــال و"البيجر"منعاً للإزعاج، وإتماماً للمتعة والفرجة والزاد".

وفي التو واللحظة اختفت أنوار الخيمة، وهـــدر صـــوت مُفخَّم هزَّ الأركان :

"الويل ثم الويل لمن تحلم".

غطّى الشاشة وجه رجل مُغتاظ غضبان، بشوارب عربية، يمشي عليها التيس الشبعان. ضغط الراوي على مفتاح الصورة، فتجمدت ملء الشاشة. بيَّن وقال :

"يا سادتي يا كرام، رغباتكم أوامر في خيمة بني همام. نزولاً عند رغبات الروّاد، سنروي الحكاية بصوت الصبية نعناع".

صدرت بين السمّاع همهمة القبول والاستحسان. وتحمس صوت قال :

"عشت يا طويل العمر".

عادت صورة الرجل تهتز على الشاشة كأنها الجان، خصوصاً وحسّه الأجش :

"ليس عندي بنات تحلم".

انتقلت"الكاميرا"اصطادت وجه الصبيّة نعناع. وانبعث صوتها طرياً أسّاراً، حدّثت مُخبرة :

"كنا نرتجف".

ظلّت الكاميرا تقترب"كلوزآب"ووجه الصبية المزوّق تشرق به الشاشة، وحسّها الراعش الخلاب :

"التصقنا بعباءة أمنا. ركض الخوف تحت جلودنا. وأبي

يهزُّ عصاه المسلولة في وجوهنا يصرخ : أمزق جلودكن لو حلمتن. ويرتفع حسّه : لا أحلام، لا أحلام".

احتل وجه نعناع بشامتها النابتة فوق خدها الأيسر أرواح الشباب السمّاع. وهمس صوتها الليّن الأخاذ :

"انتزع أبي أختي الكبرى. غرز إصبعه القاسية تحت جفونها، راح يسحب أحلامها".

انتقلت الكاميرا، وظهر على الشاشة الرجل ثائراً يسحب أحلام فتاة جميلة تتلوى بين يديه.

"كلب".

انطلقت مُغتاظة من بين السمّاع. فأوقف الراوي العرض. وفي التو والحال، أضاء الخيمة. قال :

"يا سادة يا أخيار، أعرف طيب منبتكم، وأعلم أنكم عرب أشراف. وأن حميتكم فائرة لا تنام، وأنكم لا ترضون الظلم. ولكن، هذه هي حكايتنا، ونحن لم نزل في البدء، وأن الأمور بخواتمها. ثم لا تنسوا أنها للفرجة والعظة والاستمتاع. لا وإلا سنتحول إلى محطتنا المحلية، أو محطة ال"سي. إن. إن"، أو محطة "بي. بي. سي" أو محطة " فوكس" لمتابعة آخر الأخبار .

"لا، لا. لم نأت لسماع الأخبار".

احتج أكثر من صوت بين السمّار، وزاد وعاد الحوار :

"مللنا مُحادثات واجتماعات، وشبعنا متابعة الأخبار : قيل وقال، لفٌ ودوران، وقتال ودمار".

انشرح صوت الراوي، وقال :

"نحن تحت أمركم يا سادة يا كرام. ولكن، الرجاء التـــزام الهدوء وحسن الألفاظ".

حرّك الراوي الصورة على الشاشـــة، فانبعـــث صـــوت نعناع :

"أنا أصغر أخواتي. ذابت ركبتاي قبل مناداة أبي علـــيّ. أطبقت أصابعه على رقبتي اللينة، حشر إصـــبعه المخـــرز تحت جفني كسيخ نار. أمسك بحلمي الأول، نتـــره بقســـوة. فشعرتُ أنه ينتزع قلبي. وراح يقتلع أحلامي الغافية حلمـــاً تلو الآخر".

اختفى وجه نعناع. انبثق أبوها يسحب بوحشية أحلامها. وهي تفرفر بين يديه.

"ابن الحرام".

التقطتها أذن الراوي. فأوقف العرض. أضـــاء الخيمـــة، عقّب مُنزعجاً، قال :

"يا سادتي يا أخيار، لا تجوز هذه الكلمات في خيمة بنـــي

همام، فالمسلم عفيف اللسان. ثم لمـــاذا الإصـــرار وهنـــاك محطات كثيرة تبثّ ما يسلّي الخـــاطر ويجلـــي الأحـــزان ؟ ولنجرب إذا أردتـــم محطـــة الغنـــاء العربـــي، أو محطـــة الأفلام"أمريكا بلاس"، أو المســـتقبل، أو محطـــة تلفزيـــون العرب".

"كلا، نريد إكمال الحكاية".

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

نفخ الراوي، وأكمل :

"أرجوكم الهدوء الهدوء. فنحن لم نزل في أول الكلام. إن للرجل هذا حكاية لو تعلمون مهولة ! وإن الأمور معقـــودة بخواتمها. فلا تستعجلوا، ولا تحتكموا إلى عواطفكم وأنـــتم رجال الرجال".

حرك الراوي إصبعيه، بعث الحياة في الشاشة. وظهرت نعناع باكية، تندب حظّها، وأمامها كومة أحلامهـــا العاليـــة. ولولت بصوت مُلتاع :

"لا سامحكَ الله يا أبي. لا سامحكَ الله يا جلاّد".

عاد وجهها الساحر يملأ الشاشة، وصوتها الرقراق :

"هكذا فعل أبي. اقتلع أحلامنا، أخواتي وأنا. ومن وقتهـــا ونحن مُنطويات بائسات، نعيش يومنا بِلا طعم. وفي المساء

ندخل فراشنا، نسقط في نومنا دونما أحلام".

فجأة انبعث صوت رجالي يجلله الوقار، قذف :

"بيت المال".

وتهدج الحسّ أكثر، ضجّ الإعلان، وقال :

"بيت المال، نماء للمال والأجر. غيرنا يتعامل بالربا، ووحدنا نربو بمالك عن الحرام. العمل لوجه الله شعارنا. بيت المال، المؤسسة المالية الإسلامية الأولى في العالم. مشاريعنا الخيرية خير سفير لنا. بيت المال، ربح حلال، وجزيل ثواب. بيت المال، بيت الخير والبركة بإذن الله. أخي المسلم تجنَّب غضب الله، استثمر أموالك مع بيت المال.. فروعنا مُنتشرة في كل البلاد. بيت المال، بيت كل مسلم".

أضاء الراوي الخيمة، نادى بالصبيان :

"القهوة للضيوف يا غلمان".

وفي الحال، انتشر غلمان فلبينيون بوجوه باسمة وشعور سائبة وبشرات ناعمة ولباس عربي موحَّد، انتشروا بين السمّاع. رفع الراوي رأسه، تلفَّت، أكمل وقال :

"نأخذ راحة قصيرة يا شباب. يا هلا يا هلا. ليس أطيب من القهوة العربية المُهيَّلة والتمر يا أحباب. لا تفوتكم قهوة

بني همام. ثم إن هناك : القهوة التركية، القهوة الأمريكيـــة، الأكسبرسّو، الكباشينو، النسكافيه، وشراب الكاكاو".

تأكد الراوي من وضع شماغه وعقالـــه. أســـند ظهـــره لمسنده. تناول فنجان القهوة والتمر من صبي فلبيني وقـــف أمامه حاملاً دلة القهـــوة العربيـــة. دارت عينـــاه القطيتـــان تتـــفقدان سمّاعه الشباب. أتى على قهوته، بلع ريقه. أخـــذ جهاز التحكم عن بُعد، قال :

"ياالله، يا ضيوف خيمة بني همام، هيا نكمل الكلام".

في اللحظة أطلّت نعناع بطلعة بهية ووجهٍ أخاذ وابتسامة خلابة، وشامتها ذاتها تلتهب على خدها، قالت بإيحاء :

"يعتصر قلبي الألم كلما تذكرت تلك الحادثة. بل يربكنـــي الخجل، يتلعثم لساني، فلا أعرف من أين أبدأ الكلام ! ومـــا كنتُ لأقصّها عليكم، لولا أن طبيباً نفسانياً نصـــحني بـــذلك، قال لي : احكيها بحضرة منْ تُحبّين مرة، تتخلصـــين منهـــا إلى الأبد. وها أنا أحكيها لكم الليلة".

انسحبت الكاميرا، ظهرت مجموعـــة صـــبايا جالســـات يلعبن. وارتفع صوت نعناع :

"كنا نستعد للنوم، أخواتي وأنا، حين داهمنا أبونا غضبان غضبان، ومن عينيه يتطايرُ الشرار والنيران. قصد أختـــي

الكبرى، هجم عليها. اعترضته أمي تمنعه، فـدفعها، وجـرّ أختي من شعرها كالنعجة. هوى بيـده الغليظـة يضـربها، وأمي تتعلق بذراعه. وصوته يرعد ويزبد : ألم أحـذركن ؟ ألم أقل لا أحلام ؟".

وانبعثت صورة الأب مُهتاجاً، يضرب ابنتـه الكبـرى، بينما زوجه تُحامي عنها، وقد انكشف معظم جسد الصـبية. علا الفزع وجوه أخواتها، وقد ظهـرن بقمصـان نـومهن المُخايلة، واقفات إلى جانب الحائط.

استمر المشهد دائراً، أخذ من الشباب كل مأخذ : خطـف العيون، وهدّل الشفاه، وقطّع الأنفاس. فلا تسمع إلا همساً.

دارت الكاميرا صوب نعناع، وكانت تقف تسند ظهرهـا إلى الحائط بقميص نوم وردي شفاف. وشيئاً فشـيئاً، احتـل وجه نعناع الخائف الشاشة، وجاء حسُّها المرعاش :

"ظلّ أبي يضرب أختي حتى تفجّرت دماؤها. نهش الفزع قلبي. التصقت الحائط بظهري، فتسربت رطوبته إليّ. نزلت دموعي دون حسٍّ. ولا أدري كيف فاجـأني سـائل دافـئ ينفجر بين فخذيّ. أسرعت أضغطهما، خشّبتهما. اعتصرت نفسي. حاولت أظلّ سدّاً، أمنع تدفق السائل وشخشخته".

ظهرت صورة نعناع بقميص نومها، تلتصـق بالحـائط،

تحتل الشاشة، وأنفاس الشباب الملتهبة. تسمّر المشهد حـــال انبعاث صوت الراوي :

من أجلكم يا شباب حرصتُ أن يأتي هذا المشهد كـــاملاً غير منقوص. توسّطتُ لدى الإخوان في الوزارة أكثر مـــن مرة. وأخيراً جزاهم الله عنا وعنكم كل خير وافقوا وأجازوا هذا المشهد، لعل ما فيه يكون درساً وعظة لكل من يتعظ".

ضغط الراوي المفتاح، فعادت نعناع تلتصـــق بالحـــائط بثوب نومها، وحسّها عاد :

"حاولتُ أن أظلّ مُتماسكة. لكن، السائل ضغطني، اخترق مقاومتي، بلل فخذي الأيمن. فأرخيت قليلاً، تركته ينســـاب مُلتوياً. ينحدر بدفئه ورائحته الصفراء. يخطّ ساقيّ، يرطـــب جواربي".

ابتعدت الكاميرا عن نعناع، لتُظهرهـــا لصـــق الحـــائط بقميص نومها الشفيف البليل. وصوتها الساحر الأخاذ يقول:

"من يومها وهذا المشهد لا يفارقني".

"النساءُ فتنة يا شباب. ولكن،..".

توقفت الصورة. انتشر الضوء في المكان. ارتفع صوت الراوي، بيّن المقال :

"نعم يا سادة يا كرام. كلكم يعلم أن المـــرأة خُلقـــت مـــن

ضلع أعوج، وأن تقويمه بكسره، وأنهن ناقصات عقل ودين. ولكن، وكما تقول الحكمة : لا تكن صلداً فتُكسر، ولا تكن ليناً فتُعصر، فخير الأمور الوسط. والآن، وقبل أن نرى خاتمة حكايتنا، أودّ أن أُبيّن أننا في خيمة بني همام، سنبقى نسعى دائماً لخدمتكم، وتوفير كل ما فيه الخير والمتعة والصلاح. وبحضور جمعكم الكريم هذا، يطيبُ لي أن أزفّ لكم بشرى سارة باشتراك خيمة بني همام ببرنامج شبكة "الإنترنت" الدولية. حيث وفّرنا لكم أجهزة كمبيوتر مُتطورة لمن يرغب بالاستفادة والتفرج والاستعلام. مع حجب البرامج المدسوسة التي تتعارض وديننا الإسلامي الحنيف، الفاضحة الفاسدة من صور وأفلام خلاعية وما شابه. إضافة لتوفر خطوطنا الثابتة للفتاوى الإسلامية والمال والرياضة، ولا تنسوا أن الشورى هي شعار خيمة بني همام، فكل من لديه استفسار أو سؤال أو اقتراح أو اعتراض سيجد صدورنا تتسع وترحب بكل حوار بنّاء. وما دمتُ أقرأ في عيونكم الرضا والاستحسان، فليس أمامي إلا أن أكمل الحكاية بصحبتكم".

في الحال، ساد الظلام، بزغ وجه نعناع الريّان. قالت والدلال يقطر من كلماتها :

"بأنفسكم شاهدتم كيف كانت قسوة أبينا. اقتلع أحلامنا، ولهذا كبرنا : أخواتي وأنا بعيون ذابلة، وقلوب مُنكسرة فارغة".

ابتعدت الكاميرا رويداً رويداً عن نعناع، فبدا أنها تجلس على مقعد وثير، تضع ساقاً فوق ساق. ترتدي تنورة سوداء قصيرة، تكشف عن جلّ أفخاذها. مما جنّن أعين الشباب، ذرّ شرار النار فيها، كاد يحذفها خارج محاجرها. غفل بها عن المشهد والحوار. حكت نعناع :

"أنا أصغر أخواتي، لهذا غضّ أبي الطرف عني قليلاً".

ارتفعت الكاميرا لوجه نعناع، فصدرت نفخات تأفف بين الشباب. عاد صوتها المغناج :

"لن أنسى مساء جاءني الحلم أول مرة ! قال : أعرفك نعناع، وغاب. تعجّبتُ من كلمته ! قلتُ ونفسي : من أين له أن يعرفني وأنا التي اجترّت سنوات عمرها، تفترش الظلمة، تلتحف حسرتها وتنام ؟ من يومها صادقتُ الخلوة، اشتقت الحلم في صحوتي والمنام. وحاذرت أخواتي، جانبت عيون الحيطان. ولكن، أبي شمّ خاطري، حضر لغرفتي، انتشر في المكان".

غابت صورة نعناع، لتحل محلها صورة أبيها غاضباً

مسعوراً يفتش الأدراج، خزانة الملابس، تحت المخدة واللحاف، وراء المرآة، خلف الباب، والستارة والشبّاك. وجنّت عيناه، رفع إصبعه الطويلة في وجهها. هددها بالويل والثبور وبئس العاقبة والعقاب، وقال :

"لا أحلام، لا أحلام".

ورددت نعناع وراءه خائفة، قالت :

"لا أحلام".

أطلّ وجهها باسما. أكملت بحسن الخطاب :

"انتظرتُ الحلم كثيراً. وفي فجر ليلة صيف هادئة، وبينما أنا نائمة مع أخواتي فوق سطح بيتنا الواسع. وإذ به حلمي يحطّ بقربي. يهمسني بكلماته. يدغدغني فأكاد أطير بفرحتي، أنسى الأهل والخلان".

احتلت نعناع بجسدها الترِف الشاشة، مُتمددة على فراشها بثوب نوم خيّال وقد برز لها شاب بحلة وهيئة أحسن الشباب. دنا منها، راح يهمس قرب أذنها : نعناع يا حبة القلب، ويا زينة البنات !

"بيت المال، بيت المال".

ثانية انبعث مُجلجلاً الإعلان. تبعه الراوي أطلق الضوء في أرجاء الخيمة. أردف مُرحباً، قال :

"حيّاكم الله يا شباب.. يا سادة يا أخيار، يـا زوّار ورواد خيمة بني همام. ها قد انكشف سرّ الكـلام. ووقـع الفـأس بالرأس. صادقت الصبية نعناع الحلم الشاب. ومـا تظنّونـه يقع بين صبية بعمرها وولد شاب ؟ خصوصاً وما ورد فـي الحديث الشريف بما معناه : ما اجتمـع رجـل وامـرأة إلا واندسّ بينهما الشيطان. لكن، وقبل أن نسدل على حكايتنـا الستار، أودّ أن أزفّ لمجلسكم بشرى قرب افتتاح خيمة بنت همام للنساء. نساؤكم وبنـاتكم وذوات الأرحـام. للتثقيـف والفائدة والصلاح. خيمة بنت همام، مدرسة أسرية متكاملة، لكل ربة بيت، وكل شابة تنشد العفة والسـداد. محاضـرات دينية في كيفية معاملة المرأة المسلمة لبعلها، والقيـام علـى خدمته، والسهر على راحته وإمتاعه وتسليته، وفـق آخـر الأساليب والأوضاع الحلال. إلى جانب دروس في الزينـة الإسلامية والملبس والحجاب، ودروس في الطبخ والتطريز والخياطة".

غمز ولمز ورطب حسّ الراوي، وقال :

"إضافة لكل ما مرّ، ستحوي خيمة بنـت همـام صـالة تمارين رياضية مُجهّزة بأحدث الآلات والمعدات. للرشـاقة والخفة وكمال الأجسام، أجسام الظباء الحسـان. بإشـراف

مدربات ماهرات، متمرسات في أعمال التنحيف والتنظيف ولياقة الفتاة. مع توفر حمامات "السونا" و"الجاكوزي" والبخار، وكذلك هناك صالون تجميل إسلامي وفق آخر طراز.. خلطة أعشاب بنت همام : دواء مجرَّب للثعلبة، وتساقط وتقصّف الشعر. وصفة معروفة لإزالة السواد من الأكواع والركب. سنفرة مُعطِرة ومنعِمة للجسم. دهان لفرد وتنعيم الشعر المجعّد، مع الاستعداد لتجهيز عرائس، بكامل زينة الجسد واللباس"المنيكير، والباديكير"بالحف والنتف والحنة والكحلة والخضاب والمقاس. والآن يا رجال، لم يبق لنا إلا أن نكمل بصحبتكم، الفصل الأخير من حكاية نعناع".

باهرة كاشحة ساحرة برزت نعناع، بملابس البحر"مايوه ميني بكيني" قطعتين ونعال. خطفت الأعين والألباب. ترشح بأنوثتها، تتلوى بجسدها كأنها غصن بان. تمشّت والكاميرا على ساحل رملي افترَشته أجساد الظباء الحسان. ممددات يتشمسن كاشفات نعمهن مكشوفات. ولقد كان بادياً على نعناع الانشراح والثقة بالنفس والجو والبحر والإنسان. قالت وابتسامة ندية تقطر من فيها :

"صباح الحب والبحر والجمال. اخترت أحدثكم اليوم من شاطئ البحر فالجو جنان جنان خصوصاً وأن صديقاتي

أصررن أن يأخذن حمام شمس طمعاً ببشرة ذهبية برونز وأمان. أحبائي، لا أختلف أنا عن بنات جنسي، جنس حواء في كل زمان ومكان. فكل واحدة منا إذا أرادت شيئاً فلن يقف في وجهها إنس ولا جان. أراد أبي أن يمنعنا عن جنس الرجال. اجتث أحلامنا في صحونا والمنام. ولكننا أخواتي وأنا، تركنا الحلم إلى أرض الواقع الخصبة بالموز والخيار والهزاز والرجال. صار لكل منا صاحبها الإنسان. تقابله في أي مكان : في السيارة والتلفون والكمبيوتر واليخت والطائرة والشقة والمطعم والحديقة والبيت والمكتب والدكان! يُفتش أبي عيوننا كل مساء، يحرس نومنا، يُطمئن نفسه، يفرح وينام".

وفجأة ضجّت الشاشة بأجساد صبايا كاسيات عاريات، مائلات مميلات، بصحبة شباب شباب.

"يا هلا يا هلا يا كرام".

توقفت الصورة، انطلق ضوء الخيمة. لعلع صوت الراوي يخرج الشباب من سحر اندماجهم، ونار خيالهم الولهان. أكمل يحدثهم، قال :

"يا رواد خيمة بني همام، ها أنتم رأيتم بأم أعينكم كيف ظهرت الأفعى الملعونة نعناع. وكيف أنها تستحق الرجم

والقتل بالسم الزعاف. ولكن، كفانا ووقانا الله ونساءنا ونساءكم شرَّ الفتنة والعصيان، ومنَّ علينا بحسن الختام".

اعتدل في جلسته. تنحنح طلى حسه بالنصح والوقار وقال :

"بقى أن نذكّر يا شباب، أن مجاهدة ومحاربة النفس واجبة، وكذا محاربة ومجاهدة مُخالفي شرع الله. ولكلٍ ثوابه إن شاء الله".

ورفع الراوي صوته قليلاً، قال :

"الآن تفضلوا يا سادة يا كرام، تفضلوا على مائدة بني همام، التي جهّزها وأشرف عليها أمهر الطهاة "بوفيه" عشاء مفتوح، لحم عربي مذبوح، على الطريقة الإسلامية غير مسفوح، ومن كل صنف ما لذّ وطاب".

وقبل أن يُنهي الراوي جملته، كان الشباب قد استعدوا، هجموا على الطعام، وأيديهم مدّوا، تدافعوا وشدّوا، ولبعضهم، المناكب والألسن والأقدام أعدّوا.

٢٧ - نيسان / أبريل - ١٩٩٦

شمس

يذكر راشد جيداً أول سيارة اشـــتراها. كانـــت"فـــولكس واجن"، نوع الخنفسانة الصغيرة. تكاد تلتصق الأرض، بباب واحد، ولون رمادي، ومنبه خجول، وماسحة مطر لا تعمل. حينها كان طالباً في ثانوية "الشويخ".

حين تسلَّم وظيفته الأولى، مدرساً فـــي وزارة التربيـــة، اشترى سيارة جديدة "شفروليه" حمراء.

بعدها لا يذكر كم سيارة مرّت من تحت يديـــه، ويتمنـــى أحياناً لو أنه احتفظ بسجل لجميع الســـيارات التـــي اقتناهـــا وصورها.

جرافات البلدية أزالت الأحياء القديمة، ومحـــت زوايـــا طفولته.

مناطق خرسانية جديدة نبتت إلى جانب شوارع إســـفلتية سوداء، بخطوط بيضاء وصفراء، وإشارات مرور ضوئية، وطرق خارجية سريعة.

ازداد عدد السيارات يوماً بعد يوم، وغصّـــت شـــوارع

الكويت بالسيارات الواقفة والمتحركة، أصبحت أكثر عـدداً من الناس.

كره راشد أوقات قيادة السيارة. قرر أن يطلِّـق السـيارة متخلصاً من إزعاجها، ورأى في العودة إلى استخدام الحمير أمراً مغرياً.

اشترى حماراً أبيض، بجلد نظيف لامع، وأذنين واقفتـين تشيران إلى السماء، وذيل طرِب، وطيبة واضحة.

جهّز راشد حماره برسن ملوَّن، ومقعد مـريح، وتلفـون نقال، ومسجل كاسيت، وراديو بموجة"أف أم"، ومكيف هواء ماركة "جبسون" الأمريكية، ومنبه ملاعـب بنفيـر يـوقظ الأموات.

انتشى لنظرات المارة، شعر بالارتياح لطاعـة الحمـار ومشيته المتأنية، ومعرفته وحفظه للطريق، وهدوئه وتمسكه بأعصابه، وعدم مزاحمته السيارات المستعجلة، وتسـامحه في أي مسبة توجه إليه.

تخلص راشد من مصروف البنزين المرهق، وفَّر نفقات الصيانة التي لا تنتهي، واكتفى بإطعام الحمار من فضـلات أكل عائلته الكثيرة.

ما اعترض الحمار.

استطاب راشد ركوبه.

في صباح أحد الأيام، وصل إلى مقر عمله في مجمع الوزارت متأخراً قليلاً عن موعده، فتفاجأ بموقف سيارات المجمَّع مسوَّراً ومكتظاً بالحمير.

غطّت وجهه ابتسامة الدهشة : حمير كثيرة ملونة زحمت ساحة الموقف. استكانت مسالمة. شيءٌ من ذلة أطلّ بنظرات عيونها الواسعة وهي واقفة في أمكنتها دونما أن تُربط بحبال، تهش بأذيالها ورءوسها مطأطئة، وروائحها تملأ المكان.

كان الجو حاراً، منتصف شهر آب الملتهب. حر الكويت الذي لا يطاق.

بحث راشد عن مكان خالٍ.. أوقف حماره الأبيض قرب عمود كهرباء. حمل حقيبته متضايقاً من تلك الرائحة الحامضة المنتشرة فيما حوله، كمم أنفه بطرف غترته، وأسرع إلى المجمع.

بقي الحمار واقفاً في انتظاره إلى جانب الحمير الأخرى، برءوسها المطأطئة، بينما كانت شمس آب المشتعلة تحتل السماء البيضاء.

مضت عليه نصف ساعة، وشمس الكويت الملتهبة تحتل

السماء البيضاء.

مضت ساعة كاملة.

مضت ساعتان كاملتان.

مضت ساعات، ظن الحمار أنها أعوام طويلة، وشعر فجأة أن الشمس تحولت ناراً ابتدأت تسلب تدريجياً ما في جسمه من حياة، فاستسلم لها، وارتمى أرضاً، وأغمض عينيه، وانتظر الموت بغير مقاومة، ورأى وهو يحتضر الشمس تكبر وتقترب من سطح الأرض، وتطرد السحب، وتجفف كل ماء، وتصهر السيارات، وتحول البيوت رماداً، وتطارد بغير رحمة الناس الفزعين المتراكضين في أرض جرداء شاسعة.

ولما عاد راشد إلى حماره بُوغت به ملقى على الأرض ميتاً، مفتوح الفم كأنه كان يضحك لحظة دهمه الموت.

مارس - ١٩٩٩

"يا عمري".

تظل عيناه والمرآة يلتهمان جسدها الملتهب بلهفة، بينما هي تبتسم تتلمظ بنزق لهما. تتدلل عليه. تجف جسدها الندي، وصوته يرشح بالرغبة :

"هيا.. كفى".

تتناول قنينة عطرها، وصوته راجياً :

"كلا حبيبتي، أموت وعطر جسدك".

تعيد القنينة إلى موضعها، يلاحقها بكل حركة تصدر عنها. تنحني، تمدُّ يدها إلى "الستيريو"، فتسبح غرفة نومهما بموسيقى هادئة. تنزلق تدخل معه إلى الفراش. يأخذها إلى صدره، تتمنع بحب. يحتضنها، فتتبعثر شاهقة :

"حبيبي".

يغيبان بموسيقاهما.

*****

السادسة والنصف. كعاته يستيقظ قبل المنبه. بحذر يسحب نفسه من الفراش. يتأملها نائمة :"يا حبيبتي". يهمس

لنفسه. يخرج من غرفة نومهما قاصداً الحمام. يحلق ذقنه، يغتسل، ومن ثم يخرج إلى الغرفة الأخرى. يبدأ يرتدي ملابسه :

"أحب لو تشاركني صباحي".

يدمدم ونفسه. بهدوء يعود يدخل غرفة نومهما. يتعطر. يردُّ عليها الغطاء، وصوتها متدثراً بنعاسه :

"صباح الخير".

ينحني يطبع قبلة على جبهتها :

"صباح النور.. هيا انهضي مادمت مستيقظة".

تتمطى فيكمل :

"هيا حبيبتي، لا داعي لأن تتأخري عن عملك".

"حاضر".

"أنا ذاهب.. مع السلامة".

******

الثانية والنصف ظهراً. تترقب وصوله، بعد أن عادت هي من عملها. تساعد الشغالة بإعداد الغداء. تلتقط صوت الباب. يخفق قلبها. تركض لملاقاته :

"مساء الخير".

تقبله. يرد قبلتها، بينما ترتسم على وجهه بقية انزعاج،

كعاته لحظة يصل من عمله. تنظر إليه وصوتها منكسر :

"الغداء جاهز".

*****

كعادته يأكل صامتاً، وكعادتها تراقبه، وصوتها :

"لماذا لا تتكلم ؟".

يكفُّ عن الأكل، يرفع بصره إليها :

"سؤال كل يوم !".

تأتي عيناها في عينيه. تمر بهما لحظة صـــمت. تبتســم هي:

"لماذا أنت غاضب ؟".

يبقى ناظراً في عينيها، فترقرق صوتها :

"هيا أكمل أكلك".

برغبة أقل يعود يأكل.

*****

كان يحتسي شاي ما بعد الغـــداء، وكانـــت تتـــابع فـــيلم الفيديو. يده تمتد تقرص فخذها بحب، يستحثها بصوته :

"تنامين ؟".

تبتسم له. تغمز مفلتة :

"أكمل الفيلم".

يسكت لثوان. يسحب يده، وينهض :

"سأنام قليلاً".

يدخل الفراش، تلحق به، يطوقها. يقبلها علـــى طريقتـــه. يتشممها. تتملص منه. تهمّ تخرج. تلتفت إليه مبتسمة. تعود إليه. تنحني تقبله، تهمسه :

"أتركك تنام حبيبي".

يهمد هو، وبهدوء ترد هي باب الغرفة خلفها.

*****

يستيقظ على صوت السيشوار قادماً من الغرفة الأخرى :

"عدنا إلى الزفت".

يحدّث نفسه :

"لا فائدة، مراراً قلت لها أحب شعرك مجنوناً، منطلقا بلا حدود. الزفت السيشوار يحرقه".

عزم ينهض، تأخر لثوان :

"لا داعي للنكد".

يظل متمدداً. تداهمه بفرح تقف أمامـــه. تضـــيء نـــور الغرفة. تستدير رافعة شعرها، وبلهفة تسأل :

"حلوة ؟".

ينظر إليها، رمادياً يخرج صوته :

"أكره السيشوار".

ينطفئ فيها ألقها. تبلع انكسارها. تغادر الغرفة. يقفز كالملدوغ. يلحق بها. يمسك بها في الممر. يرفع وجهها بين يديه. ينظر في عينيها. يعشقهما دون مكياج، وبحب يهمس بها:

"أنا أحبك".

تمتنع عليها إجابتها.

*****

ينهي هو استحمامه. يخرج. تدخل هي على أثره إلى الحمام. تدفع متأففة :

"يا الله، لن يغير عادته، لم ينفض الستارة من الماء العالق بها، والصابونة، والليفة".

تنافخ غضبها :

"لا فائدة".

تبتلع ضيقها، تعيد ترتيب الحمام، تخرج محملة بانزعاجها :

"نعيماً".

تقذف عليه. وباسما يلتفت :

"ينعم عليك حـ".

صوتها يقاطعه :

"الحمام مبعثر كالعادة".

صدمته جملتها العاتبة، فلم يكمل جملته.

*****

"دقيقة واحدة، أنا قادمة".

"سأنزل أنا".

يتوجه إلى السيارة. يدير المحرك. يبقى ينتظرها :

"يا الله، أتمنى لو تنزل معي مرة !".

ينفخ حانقاً. ينادي عليها بمنبه السيارة. يبقى وحده وضيقه. تظهر مسرعة. تفتح باب السيارة مبتسمة. تقلت :

"آسفة".

بضيق يرد هو :

"كما دائماً".

يدخل الصمت بينهما، تنطلق السيارة.

*****

الإشارة الضوئية حمراء. يدها تمتد ترفع صوت مسجل السيارة. الإشارة حمراء. "لا أفهم كيف تستلذ بصوت المسجل عالياً هكذا ؟". يسرُّ لنفسه. يده تمتد. يخفض صوت المسجل قليلاً. تنظر إليه، وبضيق تتساءل :

"لا أعرف كيف تسمعه هكذا ؟".

يسكت عن سؤالها. الإشارة خضراء. تتحرك السيارات. هو غارق بصمته، ويدها تمتد لتغلق المسجل.

*****

مسرعة عادت من عملها، حرصت أن تصل قبله إلى البيت. بحذر حملت باقة الورد. أكثر من مرة غيّرت ترتيبها، وحين وصل هو :

"مساء الخير".

"مساء الورد".

يقبلها، يقصد غرفتهما ليستبدل ثيابه. وحدها تحدث نفسها "سيفرح بباقة الورد".

تعود تلقي نظرة عليها. تبقى تستعجل ظهوره. تجهّز عشاءهما. يصل. يجلسان يتناولان العشاء، يبقى صامتاً على عادته. وتنبس تفلت بحرقتها :

"شكراً على الورد".

ينظر إليها مستفسراً، وجادا يسأل :

"أي ورد ؟".

"لا شيء".

تقول هي، وتتلهى تنشغل بالأكل.

*****

بجسدها المتفجر تقف أمام المرآة. الموسيقى تنساب، تلهو وضوء غرفتهما الخافت. تدغـدها رغبتهـا. تـدخل معـه الفراش. يتسرب إليه عطر جسدها. يحتضنها، ويغيبان فـي الموسيقى.

*****

بعد مرور ثلاث سنوات، فوجئ الأصدقاء عند سـماعهم خبر الطلاق.

٢٥ - آب / أغسطس - ١٩٩١

على السِيْف

شارع الخليج العربي. أمواج البحر تتلامع وزرقته.

توقفت سيارة الإسعاف، يتبعها باص الفريق الطبي. أنزل ثلاثة ممرضين عثمان محمولاً على سرير. دنوا به نحو سِيْف البحر. ثبّتوا قوائم السرير، اقترب الدكتور رئيس الفريق الطبي، تأكد من وضع السرير، أشار لهم، فغادروا المكان.

تراءى لعثمان أنه على شاطئ السيف المقابل لساحة العلم. أدار رأسه، فرأى عن بعد رأس السارية، خايلته ألوان العلم الزاهية.

خلال أقل من خمس دقائق نصب فريق العمل جميع الأجهزة الطبية اللازمة حول سرير عثمان، ومن خلف زجاج نظراته الباردة، خاطب الدكتور عثمان :

"سأبدأ العملية فوراً، عليك أن تبقى صامتاً".

ندت عن عثمان إيماءة مستسلمة.

متماوجاً وهدير موج البحر ارتفع صوت المطرب

"عوض دوخي" بغنائه مخضَباً بنداوة البحر، يصحبه تصفيق البحارة، يؤدون"الخطفة":

(ياالله ياالله، ياالله سيدي ياالله).

انتشل عثمان صوت الدكتور :

"ستأخذ إبرة مهدئة قبل العملية".

استمر صوت عوض مختلطاً بالتصفيق :

(هولو يا سيدي).

نزعت الممرضة عن عثمان بيجامتـــه، عرتـــه تمامـــاً. أغمض عينيه، بلع خجله. مزّقت كيس نايلون إلى جانبهـــا، أخرجت منه قطعة قماش داكنة الخضرة، غطت بها جســـده الضعيف. فتح الدكتور فكّي عثمان، دسَّ بينهما قطعة شاش بيضاء، أمره :

"عضْ عليها".

وَضَعَ كمامة سوداء تنزُّ منها رائحة نفـــاذة علـــى فمـــه وأنفه.

استمر صوت عوض وتصفيق البحارة ورجاءاتهم :

(هولو ربي الكريم).

انفتحت فوق السرير قبالة عثمان شاشة عرض كبيـــرة ، أشار إليها الدكتور قائلاً :

"بإمكانك أن تتابع ما يجري".

غرس الدكتور مبضعاً عند عظمة القص، نزل به شارطاً البطن حتى العانة. انبجس خيط دمٍ حار، شدَّ الدكتور جانبي الجرح، فانفتحت قِــربة البطن بأحشائها.

عينا عثمان الصامتتان تتابعان على الشاشة ما يجــري، وصوت الغناء المدوخ :

(هولو لو عوّرك ضرس).

امتدت يد الدكتور، انتزعت الكبد من مكانه، وصوته :

"ما هذا ؟".

قلّب الكبد بين يديه، وخاطب عثمان :

"كبدك محروق في أكثر من موضع".

نظر صوب الممرضة، قذف بالكبد إليها :

"نظِّفيه جيداً، ثم امسحيه بمرهم مقاوم للحروق".

قبض الدكتور على المرارة. نتشها من مكانها. تمعن في فحصها ثم قربها من وجه عثمان، وكانت تقطر دماً أسود :

"انظر، مرارتك معطوبة".

ندَّت عن عثمان آهة مكتومة، لاح ما يشــبه الاعتــذار على وجهه.

سريره يعوم فوق موج البحر، وصوت عوض دوخي :

(هولو يُبا غاب القمر وأظلم الليل)

أدخل الدكتور يده، صعد بهـا، التفـت أصـابعه حـول الأحبال الصوتية، سحبها، وما لبث أن انتزعها، ناظراً لوجه عثمان :

"لا داعي للكلام، هكذا أسلم لك".

انحنى الدكتور، امتدت يده إلى الجهة الأخـرى، تنـاول المعدة، ردد :

"المعدة بيت الداء".

تفحصها بين يديه، نظر للممرضة، فناولتـه المشـرط. شقّها في الوسط، جعل يحملق إلى غشائها الداخلي، قال :

"هذه هي القرحة الملعونة".

حاول عثمان أن يقول شيئاً. الأمواج تلاعب سريره.

أشار الدكتور إليه يسكته :

"لا داعي".

وأدنى المعدة من وجهه :

"انظر هذه القرحة".

حدد بقعة صغيرة مدماة :

"عليك أن تنتبه جيداً لطعامك، وأن تبتعد عن المشـروب والتدخين والقهوة، وبالطبع عن المضايقات النفسية".

مدَّ بالمعدة الدامية إلىُ الممرضة :

"طهِّري القرحة".

البحارة برقصهم وتصفيقهم يحيطون بعثمان ، وصـــوت عوض يقطر بحزنه :

(دمعي تحدّر على وجناي استاهل ..)

غاصت يدا الدكتور في أحشاء عثمان تبحثان عن شـــيءٍ ما، ضغط بأصابعه على غدة صغيرة :

"أمسكتُها، البنكرياس".

استخرجها، رفعها بين يديه :

"بقدر صغرها بقدر أهميتها".

تركها، راحت يداه تعبثان في أحشاء عثمان، وصوته :

"أمعاؤك تبدو مستهلكة".

استخرج الدكتور الأمعاء الغليظة والدقيقة، جعل ينشرها.

تمنى عثمان لو يتكلم.

البحارة بلباسهم الشعبي يشكِّلون دائـــرة راقصـــة حـــول سريره، مستمرين في تصفيقهم وغنائهم، وصـــوت عـــوض الشجي يتعالى :

(وسراي همي أبد ما بان واستاهل..)

حشر الدكتور يده تحت أضلاع القفص الصدري، أمسك

بالرئتين، سحبهما خارجاً، نفخ متأففاً :

"أوف".

خاطب عثماناً :

"السخام يغطي رئتيك !".

تناول مشرطاً، كحت طبقة السخام السوداء، أفلت :

"أشعر بها ثقيلة !".

تناول المبضع، مزّق الجلد، فانفرط ما بـداخلها. فعلّـق قائلاً :

"كأنها رصاص".

طفرت دمعة من عيني عثمان ، أسعفه صـوت عـوض متألماً :

(هذا جزا منْ رابع الأنذال يستاهل..).

عادت يد الدكتور إلى صدر عثمان. قبض على قلبه.

انبعثت من بين أسنان عثمان آهة طويلة :

"آه".

"تحمّل".

أشار له الدكتور، وأكمل انتزاع القلـب، جعـل يضـغط عليه، ناظراً في وجـه عثمان المتفصد وجعاً :

"تحمّل".

أعادها الدكتور على مسامع عثمان.

سال على جوانب القلب سائل أصفر مخضّر :

"قلبك ممزق. أكثر من ثقب !".

غطّت الدموع وجه عثمان.

رمى الدكتور بالقلب إلى الممرضة، والتي كانت بالكاد انتهت لتوها من تنظيف الكبد ، وتطهير القرحة :

"نظّفيه، ومن ثم رقّعيه".

تمنى عثمان لو يقول كلمة واحدة. حاول أن ينطق، لكنه تذكر أن حباله الصوتية مقطوعة.

طنينٌ حارٌ انبعث في أذنيه،

ودوارٌ في رأسه، وموجُ البحر،

وصوت عوض دوخي بلوعته :

(نسيتني ليش ؟)

كزَّ عثمان على أسنانه. أدار رأسه إلى الجهة الأخرى، فرأى السارية عن بعد، خايلته ألوان العلم الزاهية، وقد تداخل الأحمر والأخضر.

أبريل - ١٩٩٩

مرآة الغبش

دون سببٍ تسرب إليَّ غنج الشاب سمحان، شغل فكري. رحت أتابعه ومشيته المخنَّثة، حين يخطر من أمام مجلسنا قرب البقالة. سمعتُ أنه ساحر عماني من أهل"الباطنة"، وأنه يطير ليلاً لأهله، وأن لا أحد يدخل غرفته، لأنه يستقعد عبداً له من الجان، يتسامر معه حتى الفجر. وسمعتُ أن ذلك العبد يتخذه زوجة له. ولهذا يتكسر سمحان في مشيته، يحلق شاربه، يحف شعر وجهه، يزيل شعر ساقيه وفخذيه بحلاوة السكر، يكحل عينيه، يُدلِّي ذراعه إلى جانبه كالبنات، يمطُّ نهايات جمله، لا يظهر إلا متزيناً وعطره في أثره .

حين استوقفته أول مرة، عرضت عليه الجلوس معنا. سبَّل جفنيه، ردَّ بنبرة أنثوية مائعة :

"مشكور".

أكمل طريقه بمشيته الذائبة. فهاجت عليَّ عيون الشباب وتعليقاتهم :

"ماذا تريد منه ؟ لماذا تتحرش به ؟".

ولم تخلُ من اللمز :

"أعجبك دلعه ؟".

يومها صممت على معرفة سمحان.. في المساء ذاته قصدت غرفته في بيت العزاب. وما كدت أطرق بابه، حتى برز لي. فسح الطريق. قال مرحباً، وكأنه كان ينتظر قدومي :

"ادخل".

دخلت فأوصد الباب ورائي.

مرتبة ونظيفة غرفته. جميع الحوائط لابسة الثوب الأبيض، ويحرسها السقف الأصفر. خزانة ثياب خشبية بضلفتين تفصلهما مرآة أكل منها الغبش في أكثر من موضع. سجادة فارسية قديمة تحتفظ برونقها، ومساند بوجوه مطرزة بذوق نسائي.

حين جلست، تراءت لي المرآة وكأنها تهتز في مكانها بين فينة وأخرى. دققت فيها.

حبست أنفاسي. جاءني صوت سمحان :

"أجهز الشاي فديتك ؟".

أرسل كلمته الأخيرة بولهٍ ظاهرٍ استوقفني. قلت :

"شكراً".

"أتشرب بارداً ؟".

عادت تخايلني المرآة. فدفعت :

"فيما بعد".

"أعدُّ لك العشاء ؟".

استغربت سؤاله. دفعت :

"بعدين".

فخفض جفنيه، قال :

"حاضر فديتك".

انتبهت لبياض ساقي سمحان، وترقرقهما بنعومتهما. وشدهتني أظافر أصابعه الصغيرة وكأنها لطفل رضيع !

بعد ذلك المساء، غدت غرفة سمحان هي مكاني المفضل. نقلت إليها بعض كتبي المدرسية، وأشرطة الكاسيت التي أحب. أجيء إليها في أي وقت، فأجدها غارقة فى هدوئها، نظيفة ومُبخَرة.جاهزة لاستقبالي والسهر على راحتي.

سمحان عشق القيام على خدمتي. يدللني، يحرص أن يطبخ لي كل ما أشتهي. يغسل ويكوي ثيابي. يجلس كاتماً أنفاسه وحركته أثناء دراستي. ويترك لي السرير لأتمدد فوقه، بينما يأخذ هو طرف السجادة، ينام على الأرض.

وحدها المرآة ظلت تخاتلني بحركتها المريبة. مراراً

وقفتُ أتأملها. أتفحص تثبيتها، أجدها غاطسة في إطارهـــا. وبعد مدة قررت إهمالها. تآلفت واهتزازاتها المتموجة. لكن، كلمة فديتك وتكرارها بلهفتها جعلت تثيرني. ويوماً صرخت بسمحان :

"لا تقل فديتك".

فاجأني يتجمد في موضعه. تسيل دموعه علـــى خدَّيـــه، يرتجف بكله، تفوح منه رائحة تشبه رائحة الزعفران، ويكاد ينقلب لونه إلى الأخضر.

لاحظت على سمحان، أنه يذبل تماماً ليلة يكتمل البـــدر. يفارقه حيله، تخور حركته، تتسع عيناه فتحتل وجهه، تنتشر به رائحة الزعفران، ويتكور بجسده اللين، ينـــام كالميـــت. ووقتها يزحف الغبش على المرآة، يأكل وجههـــا. فتســـكن واهتزازاتها.

يوم انتقلت عائلة بلقيس لتسكن بجوار بيتنا، كـــان عمـــر علاقتي بسمحان تجاوز السنوات الثلاث. كنت في الســـابعة عشرة، بينما تعدت بلقيس العشرين بقليل.

لعبت بقلبي من أول نظرة. قصرها المحبـــب، شـــعرها الأشقر، استدارات جسدها الملتهب، بياضها الوردي، عيناها العسليتان، سحر نظرتها، ولا أدري لماذا اشتعل بي خيالهـــا

يوم علمت أنها مطلقة. اخترعت الحجج تلو الحجج لأكلمها. ولكنها ركبت دلعها، تتهرب مني، تصدُّ تـــوددي، تتجاهـــل إشاراتي، وتزوغ مني كلما دنوت منها.

لازمت عتبة بيتنا، أرصد خروجهـــا ودخولهـــا. أعـــبّ رؤيتها تتغاوى بمشيتها، تعلم أنني أرصدها، وتمعن تســـحن قلبي.

انشغالي ببلقيس جاء على حســـاب علاقتـــي بســـمحان. صرت أنقطع عنه، وحين أطـــلُّ عليـــه، تقـــابلني دموعـــه الصامتة، بنظرته المستعطفة، وترحيبه :

"هلا فديتك".

استمرت حالنا حتى حلّ فصل الصيف، نُصـــبت أســـرة النوم فوق سطوح البيوت، فوقعتُ أنا على ســـلوتي. فمـــع غيبة كل شمس، وتحرك نسمات هـــواء المســـاء المنعشـــة، تصعد بلقيس تبسط الفرش، تُرتب الأسرة، تلتفتُ وابتســـامة وجهها، تلاعبني، تخالسني النظر أنا المختبئ خلـــف جـــدار السطح، الذي يفصلني عنها، ويدغدغني.

كثيراً ما مكثت بوقفتي تلك وحسرتي، أسرق النظر إلـــى بلقيس طوال الليل، بينما تهنأ هي، تغطُّ فـــي نومهـــا إلـــى جانب أمها وأختها.

بلقيس صارت كل حديثي وسمحان. أظلّ أشكو إليه عذابي وشوقي الموجع للقائها. ويظلُّ ينظر إليّ منصتاً كعادته. وفي أحد المساءات خرج على صمته، زحلق سؤاله:

"توعدني فديتك ؟".

نظرت إليه أستفسره، فقال بنبرته الأنثوية :

"أنا آتيك ببلقيس".

دفق قلبي. أسرع يحضرني جميع الكلام الذي سمعته عن سمحان. قفزتُ أواجهه. فهيئ لي، وكأن اهتزازاً شمل المرآة. سألته متلهفاً :

"كيف ؟".

"توعدني أولاً فديتك ؟".

"أوعدك".

"تتحدث معها بكل شيء. تسهر بقربها. ولكن، دون أن تمسَّها".

وتعذر حسّه. غاب سواد عينيه. قال :

"من زمان تركت أنا..".

سكت لبرهة، كنت أغلي بلهفتي. وأكمل هو :

".. لأجلك سأعود هذه المرة. هذه المرة فقط".

ورجاني مُستعطفاً :

"لا تضرَّني فديتك".

"سمحان صدّقني".

هتفتُ به، وأضفت :

"أقسم لكَ لن أمسّ بلقيس، فقط أجلس إلى جانبها، أتحدث وإياها، أشبع من وجهها الحبيب".

"حسناً، انتظر حتى يكتمل البدر".

قال مُستسلماً. فسألته :

"ماذا ستفعل ؟".

"هل تعرف اسم أمها ؟".

"كلا".

"لا يهم. ستأتيك بلقيس تركع تحت رجليك".

"سمحان ، أأنتَ واثقٌ مما تقول ؟".

"لا تُخبر أحداً بشيء. انتظر حتى يكتمل البدر فديتك".

انتظرتُ أسبوعاً، مرّ عليّ دهرٌ بين الرجاء والخوف. وفي مساء ليلة النصف جاء سمحان يطلبني من بيتنا، وهو الذي لـم يسبق له أن فعل هذا طوال علاقتنا ! صاحبته لغرفته، فوجدتها مُهمَلة على غير العادة، وقد اعتكر وجه المرآة.

تهالك سمحان قرب الزاوية، لحظة ولجنا غرفته. أسـند

ظهره إلى الجدار. ميَّزت انبعاث رائحة غريبة. وبالكاد دفع سمحان كلماته :

"جئتُ بكَ لأحذرك للمرة الأخيرة، أرجوك لا تتام مع بلقيس".

وتهالك حسّه :

"فديتك لا تؤذيني".

"سمحان، لقد فهمت هذا جيداً، لا داعي لأن تقلق".

طمأنته. فأكمل يتلو عليّ مغمضاً عينيه :

"لو نمت معها الليلة، فلن تنام مع امرأة غيرها طوال حياتك. ستفقد فحولتك، تموت فيك رغبتك".

"أقسم لك لن أقربها".

أعدت على مسامعه. ولحظتها شعرت بالرائحة الغريبة تجتاحني والغرفة. فنهضت أستأذنه، قلت :

"سأذهب".

ودون أن يغادر مكانه، بعث بحسّه الواهن :

"انتظرها الليلة، وتعال غداً لتبشّرني".

مُبكراً جهَّزت سريري. نشرتُ فراشي. وبعد العشاء، حملت كأس مائي، وصعدت أنتظر بلقيس. تمددت على ظهري، أواجه السماء باكتمال بدرها الفضي، ولا أدري

كيف أخذتني غفوة ! صحوت بعدها على حجـرة صـغيرة تسقط على رجلي. صفّق قلبي بفرح، وأنـا أبصـر بلقـيس بقميص نومها تُشير إليَّ، من خلف جدار السـطح. مشـيتُ على رءوس أصابعي غير مُصدقٍ. وصلت إليهـا. حييتهـا بحسّ راعش :

"مساء الخير بلقيس".

"مساء النور".

ردَّت عليَّ فخيِّل لي أنني أسمع نبرة سمحان. لـم أهـتم للأمر، فلقد كنتُ مضطرباً، وأنا أرى بلقيس بهـذا القـرب للمرة الأولى. قلت لها :

"تعالي".

لـم تمـانع. رفعـت سـاقها، فلمـع بيـاض ربلتهـا المغري.تسوّرت الجدار. مشت طائعة معي إلـى الفـراش. لفترة بقيت أتأملها : بلقيس بشحمها ولحمها ! أخبرتها أننـي تعلّقتها حال رأيتها أول مرة، وأنني لا أعرف سـبباً واحـداً يجعلها تصرّ أن تبتعد عني. كانت ترقبني بعينـين عشـش بهما الخدر. همست بي :

"أنا لك الآن".

ثانية ميّزت صوت سـمحان بحسّـها ! طافـت رائحـة

الزعفران بأنفي. فاجأتني بلقيس تمدّ يدها، ترفع كفي تقبّلها ! لسعني حارّ أنفاسها. أيقظ رغبتي المتربصة. ولكني تذكرت تحذيرات سمحان. قلت : أمددها على الفراش إلى جانبي، ولن أمسّها.

"منذ مدة وأنا أشتهيك".

نبست بلقيس، انقلبت تحتضنني. تأخذ شفتي بفمها.فأغيب ونار جسدها.

حين انتبهتُ، كانت بلقيس تلتفت إليّ بعينين مُطفأتين. قالت :

"يجب أن أذهب".

انسلّت من فراشي، نهضت ترتدي قميص نومها. استوقفتها، طلبت منها تذكاراً. سحبتُ ربطة شعرها، فلم تُعارض.

أوصلتها إلى الجدار. قبّلتها، فطفحت بي رائحة الزعفران. ساعدتها تتسوّر راجعة لسطح بيتهم. وعدت مُتعباً لفراشي. تفقدت ربطة شعرها. دسستها تحت مخدتي، ونمت.

استيقظت مُتأخراً بعد أن حرقتني سياط الشمس. أحسستُ برأسي ثقيلة. بعيدة لاحت لي ذكرى زيارة بلقيس.

استخرجت ربطة شعرها من تحت مخدتي. خبّأتها بجيبي ونزلت.

جاءني طيف سمحان بينما أتناول فطوري. شيء ما أخافني. عافت نفسي الأكل. نفضت يدي. حملت ترددي، وخرجت لملاقاته.

هادئاً كان بيت العزاب. طرقت باب غرفة سمحان، ففتح لي رجل طويل، يصبغه السواد الفاحم، وتتلامع عيونه المشروحة. أخافني ظهوره المباغت، فلم أعرف لسمحان صديقاً منذ تعارفنا ! قلت له :

"أريد سمحان من فضلك".

أصدر صوتاً رفيعاً، قال :

"سمحان ليس هنا".

شعرتُ أن المكان يدور بي، وأن ساقيَّ لا تقويان على حملي. ظلّ الرجل بوقفته، يسدّ بجسمه فتحة الباب. فسألته راجياً :

"أين ذهب سمحان ؟".

بانت أضراسه شديدة البياض. قال بلهجة شامتة :

"سمحان سافر، ولن يعود".

وابتعد عن الباب، فلاحظتُ أظافر أصابعه الصغيرة.

خاطبني :

"ادخل".

نظرت بعثرة الغرفة، لم أجد المرآة في مكانها. أحسستُ بشيء يسقط من بين ساقي قرب العتبة. بحثت قرب نعلـــيّ. ظلّ المكان نظيفاً. أدرتُ ظهري، أجـــرُّ قدميّ الثقيلتين جداً.

١ - تموز / يوليو - ١٩٩٦

السادسة صباحاً :

"لا أدري لماذا يكرهني المراقب محمود. منذ اليوم الأول له في الموقع. يكلفني بأكثر الأعمال إرهاقاً. تعبت، لم أعد كما كنت. الغربة والتعب أكلا عمري. الحمد لله، أشهر قليلة ويصبح إسماعيل باشمهندس، وأرتاح من كل هذا".

"أبو إسماعيل".

صوت المراقب يصلك، فترد :

"نعم ؟".

عيناك معلقتان به، وتوقعك :

"أنت وعبد الغفار تكملان حفر قواعد الأساسات".

"حاضر".

تلتفت لعبد الغفار. عدم الرضا مرتسم على قسماته. تحملان معوليكما، وصوت عبد الغفار متذمراً :

"توكل يا عم".

تبتعدان قليلاً. محمود يوزع باقي العمال، وصوت عبدالغفار :

"ربنا يهدك يا سي محمود الزفت".

*****

حرارة الشمس تلسعك :

الإشاعة تملأ الموقع. الشركة عازمة على إنهاء خـدمات العمال المسنين. وحدك تعـول أسـرتك وأخواتـك. ابنـك إسماعيل في سنته الجامعية الأخيرة.

"أبو إسماعيل".

صوت عبدالغفار ينتشلك. تلتفت إليه، وهو :

"الحاج فتحي وصل أمس من البلد".

لم تعلق بشيء، فأضاف :

"ألا تود الذهاب للسلام عليه ؟".

"سأفعل".

"أشهر قليلة وأرتاح أعود أعيش بين عيالي. أراهم صـباح مساء، أملي عيوني منهم أبو الباشمهندس. اللعنـة عليـك يـا محمود. شمس الكويت زيها زي شمس جهنم". تعدل من وضع طاقيتك على رأسك. تلمحه المراقب محمود متجهـا نحوكمـا. تشدد قبضتك على معولك. وبكل قوتك تهوي به تحفر.

"انظر".

عبدالغفار يمسح عرقه، مشيراً لمحمود الذي اتخذ مكانـاً في ظل المحْدَدَة.

"دائماً يتعقبنا".

عبدالغفار يدمدم، بينما بقيت أنت ساكتاً، ترفع معولك وتهوي به.

"كلانا بعمر والده".

لم تعجبك جملة عبدالغفار، فخاطبته متبرماً :

"اشتغل وأنت ساكت يا أخي".

*****

العطش إبر تنغرس في فيك :

"محمود الزفت طيب هو مع جماعته، يختار لهم أسهل الأعمال، يخصهم بالأماكن الظليلة.. عندما كلمته في الأسبوع الماضي، قلت له :

"أعمل طوال اليوم، لا أغادر مكاني، ولم تسجل لي أية ساعة عمل إضافي !".

الخبيث ردَّ عليَّ معنفاً :

"اعلم أنني متفضل عليك بأن أتركك تعمل هنا".

خمس وثلاثون سنة وأنت تكد وتشقى. انحنى ظهرك، وشاب رأسك. ترمي بنفسك كالميت على السرير، حين تعود إلى الغرفة التي تسكنها وثمانية من أبناء قريتك.

تنتبه إلى أن أنفاسك تتلاحق. قبضتك ترتخي على معولك. تعبٌ بعض الهواء. الإحساس بالعطش يتسرب

إليك. محمود الزفت لم يزل في مكانه. عبدالغفار يسبح فـــى عرقه مثلك. العطش إبر تتغرس في فيك لا بـــد أن تشـــرب ماء. ستذهب مسرعاً. لن تغيب طويلاً. شربة ماء وتعود.

"أبو إسماعيل".

بادرك محمود قبل أن تصل إليه، وصوتك :

"اشرب ماء".

أشار برأسه" امض"من غير أن يقولها.

*****

عمولة :

"أعرف أمثال محمود، يريد إحضار عمال جدد للموقـــع، يقبض منهم عمولة. مصطفى فـــراش المهنـــدس أخبرنـــي. الكلب محمود ظل لأكثر من ساعة يحـــاور الباشـــمهندس، بخصوص الاستغناء عن خدمات العمال كبار السن.

"أين سأولي ؟ صعب جداً أن أجد عمـــلاً جديـــداً. كـــل الشركات تبحث عن العمال الشباب."

"عم أبو إسماعيل كيف حالك ؟".

جاءك صوت بدري قرب براد الماء :

"الحمد لله".

رأيت ابتسامة بلهاء تعلو وجهه، وكمن يخاطب نفسه أفلت :

"تمام".

*****

الباشمهندس قادم :

في طريق عودتك لم تجد المراقب محموداً فـــي مكانـــه. مصطفى قال :

"الباشمهندس كلف محموداً بإعداد كشوف بأسماء العمال كبار السن الذين سيتم الاستغناء عن خدماتهم".

"ربما لهذا وقف هو يراقبني وعبدالغفار. ربما كان مـــن الأفضل لو أني لم أذهب لشرب الماء. لكنها شمس الكويـــت الملتهبة، و العطش اللعين".

تتلفت رافعاً معولك، وتهوي به.

"في آخر مرة، إسماعيل انحنى قبّل يدي، وعدني :

"سأعوضك كل تعبك يا أبي".

"الباشمهندس قادم".

صوت عبدالغفار ينبهك.

"هذا يؤكد ما قاله مصـــطفى. الباشـــمهندس نـــزل إلـــى الموقع، ليتأكد بنفسه من كشوفات محمود".

ترفع معولك عالياً، وبقوة تهوي به، و :

"ها، ها، ها".

المهندس يقترب منكما :

"كيف حالك أبو إسماعيل ؟".

"ربنا يبارك فيك يا باشمهندس".

تحاول أن تحمّل صوتك وداً واضحاً، تعتدل واقفاً. تمسح عرق جبهتك، وتلتفت لعبدالغفار تستحثه :

"سننهي حفر القواعد قبل الظهر".

تعود تحفر. تختلس النظر للباشمهندس. ترى أثر جملتك عليه.

******

ظالم هو :

لو كان محمود أمرك بالعمل في مكـــان ظليـــل! أشـــعة الشمس سياط تلهب ظهرك. تفك أزرار قميصك. تبلع ريقك فيداهمك جفاف فمك المر.

"لن أستطيع أن أذهب مرة ثانية لشرب الماء. لو عاد ولم يجدني. ظالم هو سيتهمني بأني قضيت طـــوال المـــدة فـــي الحمام. سأعتبر نفسي صائماً".

عبد الغفار يتوقف عن الحفر. يرمي معوله. فتسأله :

"ما بك ؟".

تعتدل ترفع ظهرك، تمسح عرقك.

"سأذهب للحمام".

بقيت تنظر إليه، فأضاف حانقاً :

"يلعن أبو الشغل على أبو الشركة".

"من المؤكد أنه لا يعلم بكشف العمال".

تسرّ لنفسك، وتطلب منه :

"أحضر لي بعض الماء معك".

"تعال معي".

"لن أذهب".

قذفت بجملتك، وصوته يستحثك :

"تعال يا أخي يلعن أبو الشغل".

تسكت، وصوته يقول متألما :

"الشمس، والحر لا يطاق. وأعمارنا..".

"عبدالغفار".

صوتك يقاطعه. ينظر إليك، فتقول متضايقاً :

"لا أريد ماء".

*****

تحفر والشمس :

"من الأفضل أن أتماسك. سأحتمل الحر. تعـودت هـذا. قسمة ربنا".

يداك ترتفعان بالمعول. ألم حاد ينبت في كتفيك. تحـس بثقل المعول عليهما. جاف فمك. قلبك يخفـق بسـرعة. لا تقوى على سحب أنفاسك. تتلفت، وتهوي بـالمعول تحفـر والشمس.

*****

كاتب الدوام :

الرابعة عصراً. كاتب الدوام محاصـــر بالعمـــال يـــوزع عليهم بطاقات نهايـــة الدوام، وصوته ينادي :

"سيد سيد إسماعيل".

لا رد. يكرر هو النداء. العمال يتلفتون حولهم، أكثر من صوت بنفاد صبر :

"أبو إسماعيل، يا أبو إسماعيل".

يطوي كاتب الدوام البطاقة، ويكمل ينادي على العمال.

*****

سؤال :

السادسة مساء، وصوت المحقق يسأل عبدالغفار :

"أين اكتشفت جثة أبي إسماعيل ؟".

١ – آب / أغسطس –١٩٨٨

ليلة بـاردة

أطبق شفتيه على إصبع السيجارة، سحب نَفَساً طـويلاً. تذكّر حساسيتها وكرهها للتدخين. ربط سمعه وصوت اندفاع ماء الرشاش. ظلّ ذهنه خالياً من أي فكرة.

لحظة التقط وجهها، قبل سويعات، عثر عليها واقفة بـين المستقبلين في المطار، خطفت قلبه. بدا كما لو أنـه تفاجـأ بلقائها. هاجت به كل ذكرياته دفعة واحدة.. هي هي، الفتـاة التي أحبّها، وعجز عن الإمساك بها. ما تغيّر فيهـا شـيء. كأن السنوات السبع لم تمرّ عليها !

شريط راكض عبرته علاقتهما. ولا يدري كيف انعطـب مزاجه. هبط عليه حزن أثقل خطوته، وبدد لهفته. شعر أنـه فقدها إلى الأبد. نشب فيـه إحسـاس بخسـارتها. خسـارة معجونة بالحسرة. خسارة لا أمل في تعويضها. طعم حريف تكوّر كالحجر يسدُّ عليه بلعومه، يخنقه وغصّته.

انتبهت أذنه إلى توقف اندفاع ماء الرشاش. نظـر إلـى سيجارته. تذكّر كيف كانت تدوّخه رائحة جسدها المـنعش، حال تنتهي من اغتسالها. أغمض عينيه، راح يستحضـرها

تلك الرائحة، أحسّها تحت لسانه. بقي مُتهالكاً خلف حزنه، ودخان سيجارته الكسول. يترقب خروجها.

"نعيماً".

قالها حين أطلّت عليه برأسها، تخرج من الحمام. يلفُّها"الروب"الأبيض السميك، يلاحقها بخار الماء، وبللُ شعرها الأسود.

"أُف".

نفخت مُتأففة، وأشارت لسحابة الدخان :

"أرجوك توقف عن التدخين".

أطفأ سيجارته. نهض من مقعده. دنا منها. حزرت نيته. ردّته بتمنّعها، وصوتها المراوغ :

"ماذا تريد ؟".

"لا شيء".

لمّها إليه. فتسربه دفؤها الرطب. انحنى يشمُّ رقبتها. قبّلها ورائحتها الذائبة. تنهد مُفلتاً :

"لن تتغيَّر هذه الرائحة".

"ولن تتغير أنتَ"

ردّت، وتملصت من بين يديه. مشت نحو المرآة. فخاطبها :

"سأدخل لأغتسل".

"لا تتأخر كثيراً، أما زلت على عادتك ؟".

نظر إليها، فقالت له مبررة :

"تعرفني، لا أطيق البرد. سأنتظركَ في الفراش".

خطا خطوتين. وقبل دخوله الحمام، التفت إليها. تلاقت عيناهما. فعاوده الإحساس بخسارتها. لوَّن الولهُ صوته :

"لن أتأخر".

وترطبت نبرتها، ردَّت :

"انتظرتها طويلاً هذه الليلة، ولن أُضيّعها".

ابتسم لجملتها، أراد القول : وأنا أيضاً، ولكنه دخل الحمام، أغلق الباب وراءه.

*****

ما كاد يصدق عينه. خفق قلبه حين رآها تقف أمامه في المطار. مشى نحوها، يهفو لاحتضانها وتقبيلها. ولكنها، مدّت يدها مُصافحة. دفعت :

"الحمد لله على سلامتك".

أوضحت بلهجتها القاطعة التي يعرف :

"لن أقدر أبوسّكَ هنا".

سارت دون أن تنتظر ردّه، ولم يعترض. تبعها حاملاً

حقيبته الصغيرة. وما لبثا أن تماشيا.

فأسرع الحنين يستيقظ بقلبه.

كم انتظر هذا اللقاء ؟ أخيراً ها هو يلتقيها، يخطـــو إلـــى جوارها. لم يتغير فيها شيء، يتصوّرها كيوم تركته ورحلت مع الآخر. ترفعها ذاته. مشيتها العجلى، وميلها بكتفها، تكاد تمسُّ كتفه.

استقبلهما الظلام البارد، خارج مبنى المطار. قالت له :

"لمزيد من الحذر، تحاشيت حجز غرفة في أحـــد فنـــادق المدينة. فضَّلتُ فندقاً بعيداً". انعطفت لهجتها أضافت :

"فندقاً صغيراً، أتمنى أن يعجبك".

كان يتأملها، وكأنه يراها لأول مرة.

"ما بكَ ؟!".

سألته والتفاتتها. فأجاب :

"لا شيء".

اصطاد عينيها النزقتين. استفسرها :

"هل فندقكِ الصغير قريب من هنا ؟".

سرحت برهة، قبل أن تردّ :

"ساعتان في القطار".

أحسَّ بأرضية"البانيو"باردة تحت قدميه. رجع إلى الوراء

خطوة.امتدت أصابعه تفتح رشاش المـــاء الحـــار. انتظـــر لثوان، ثم جعل يعادله بالماء البارد.

طوال الطريق إلى الفندق، لم تنقطع هي عـــن الكـــلام. تحدَّثت معه بعفوية، وكأن شيئاً لم يقع بينهما ! وكأنها فارقته بالأمس ! ظلَّ مُنصتاً يتابعها وحكاياتها، يبحث عن شيء ما فيها، دون أن يعرف ما هو ! حـــاول مـــراراً مجاراتهـــا، يتخلص من حزنه وصمته، ولكنه لم يستطع. استمر إحساسه بخسارتها يسحقه. ما تصورها يوماً تكون زوجة رجلٍ آخر.

برودة الماء تلسعه. زاد على الماء الحار. استعجل نفسه. هي تنتظره في الفراش. كم عذَّبته ؟

سبع سنوات مرّت على طلاقهما، وهي حاضرة غائبـــة، وأخيراً، يلتقيها الليلة، يختلي بها ورائحة جســـدها النديـــة. لكن، ما عادت خالصته. رجلٌ آخر دنّسَ مزارها.

خلال اليومين الماضيين ظلَّ مشتتاً. تصوّر نفسه يلتهمها لحظة يختلي بها. وحين وصلا الفندق، صعدا إلى غرفتهما. انطفأ شيء بخاطره، تبخرت لهفته. لم يجد به رغبة لمجرد تقبيلها. وقفت قبالته، راح ينظر في عينيها، فبادرته ونبـــرة صوتها التي طالما لعبت به :

"أعلم أنك تشتاقني".

استمر ينظر إليها، خطا نحوها. شرّعت يـديها، تأخـذه لصدرها. فبادلها، شبك ذراعيه حولها، رمى برأسه المثقـل على رقبتها.

عنَّ له أن يدخن سيجارة. أحياناً كثيرة يترك اسـتحمامه، ينسحب من تحت الماء. يتلذذ بسيجارة هادئة. ومن ثم يعود لإكمال اغتساله. علبة سجائره في الخارج. أوصته هـي أن لا يتأخر. تمنى لو يقدر ينفض عنه انقباض قلبه.

تذكّر مساء اتصلت به، دسَّت له جملتها، كما لو أنها لـم تخطط للأمر :

"أتودُّ أن تراني ؟".

خنس خلف سمّاعة التلفون. وحين استبطأت ردّه، سألته:

"أين أنت ؟".

وأكملت :

"أستطيع ترتيب كل شيء. نلتقي ليلة واحدة".

ظلَّ بصمته وعرضها المفاجئ. قالت له :

"فكّر في الموضوع".

"موافق".

أعطى إجابته، فتخيّلها تبتسم على الجهة الأخـرى مـن التلفون.

زاد على المياه الدافئة قليلاً. وقف تحت الرشاش. أنعشه اندفاع المياه. أزال عن جسمه رغـوة الصـابون، قبـل أن يخطو خارجاً من البانيو.

*****

لحظة خرج من الحمام، تـفاجأ بها غافية. اعتقد أول الأمر أنها تمزح معه، تختبر لهفته. اقترب منها، وقف قرب رأسـها لفترة. كانت تحتضن المخدة لصدرها، تغطُّ في نومتها القديمـة التي يحفظ. رفع طرف الغطاء. لم تغيّر عادتها، ما زالت تنـام عارية. ردَّ طرف الغطاء. جعل يتفحصها وأنفاسها الهادئة.

رمى عنه روب الحمام. استدار يقصد خزانة الثياب. ارتدى ملابسه. خطرت له فكرة: جلس إلى المكتب. تناول القلم، خـطَّ على ورقة بيضاء كلمة أنا، وعجـز عـن إضـافة أي كلمـة أخرى. شعر أن ذهنه خاوٍ تماماً. ظلَّ لفترة في جلسته، قبل أن يترك مكانه، ينهض حاملاً حقيبته الصغيرة، يفتح باب الغرفـة بحذر، يطفو بخطواته، ينسلّ خارجاً. يغلق الباب خلفه.

حين صار في الممر، اشتهى أن يدخن سيجارة. مدَّ يـده لجيبه، فانتبه أنه نسى علبة سجائره في الداخل.

٦ - حزيران / يونيو - ١٩٩٦

قهوة مُـرَّة

زار عواد مدير الإدارة زميله مشـــعل رئـــيس القســـم، دارت بينهما السوالف والدردشة عن الترقيـــات والتـــنقلات. احتسى عنده فنجان قهوة أسكره برائحته، فسأله :

"منْ يعمل هكذا قهوة عندكم ؟".

ردّ مشعل :"الفرّاش مرزوق".

وأضاف :

"الرجل فنان بعمل القهوة".

أكملا السوالف والدردشة، بعدها ودَّع عواد مدير الإدارة زميله مشعل.

صباح اليوم التالي، تفاجأ مشعل بقـــرار نقـــل الفـــرّاش مرزوق إلى مكتب عواد. أزعجه تصرف عواد الخســـيس. أبقى القرار أمامه، جعل يتملى توقيع عواد، أهمـــل تحويـــل الفرّاش.

في الحادية عشرة، اتصلت سكرتيرة مكتب عواد، كلّمت مشعل، استفسرته عن وصول كتاب الفرّاش مرزوق إليـــه.

أجابها متضايقاً :

"الكتاب أمامي".

"شكراً سيد مشعل. السيد عواد أراد التأكد فقط".

أنهت المكالمة، ولكنها بعد خمس دقائق عاودت الاتصال:

"سيد مشعل، السيد عواد يبلغك أنه بانتظار الفرّاش".

ضبط مشعل أعصابه، أجابها :

"ليس اليوم".

جعلت السكرتيرة تنتظره لعله يضيف شيئاً، قال لها :

"خلص".

أغلق سماعة التلفون مردداً :

"نذل".

صباح اليوم التالي، دخل مشعل مكتبه، فأخبرته سكرتيرته أن سكرتيرة السيد عواد اتصلت أكثر من مرة بشأن الفرّاش مرزوق.

قبل أن يُنهي فنجان قهوته، جاءه صوت سكرتيرة عواد:

"سيد مشعل صباح الخير، السيد عواد بانتظار الفرّاش".

مرّت لحظة صمت بينهما، أخبرها محاولاً التحلي بهدوئه: "قولي للسيد عواد أن الفرّاش سيبقى هنا".

أغلق التلفون بوجهها.

عاودت الاتصال بعد خمس دقائق :

"سيد مشعل، أنا آسفة، سيد عواد طلب مني أن أبلغك أن اللوائح تحتم نقل الفرّاش مرزوق ما دام قد صدر قرار بنقله".

"الفرّاش سيبقى هنا، ولا أريد سماع صوتك مرة أخرى".

اشتاط عواد غضباً حين سمع من سكرتيرته الخبر :

"رئيس قسم في إدارتي، ويجرؤ على كسر كلمتي، سأجعله يعرف منْ عواد".

اتصل عواد، كلّم صديقه زايد وكيل الوزارة المساعد.

اتصل زايد وكيل الوزارة المساعد، كلّم مشعل، نصحه بتحويل الفرّاش :

"الأمر لا يستحق الخلاف يا أخ مشعل، فرّاش تافه، في ستين داهية !".

"اتصالك يا أخ زايد على رأسي وعيني، لكن الفرّاش سيبقى هنا".

تمسك مشعل بموقفه.

"كما تريد".

أغلق زايد وكيل الوزارة المساعد التلفون حانقاً .

بادر مشعل إلى الاتصال بصديقه وكيل الوزارة الذي

يرأس زايد.

اتصل وكيل الوزارة بزايد وكيل الوزارة المساعد، طلب منه الاتصال بعواد لسحب قراره بتحويل الفرّاش.

اتصل زايد وكيل الوزارة المساعد بمدير الإدارة عـواد، أبلغه بتعليمات وكيل الوزارة، طلب منـه سـحب قـراره بتحويل الفرّاش.

رفض عواد، أصرَّ على قراره :

"سنرى كلمة منْ الأقوى".

مساءً، زار عواد ديوانية ابن عمه عضو مجلس الأمـة. قصَّ عليه الحكاية، أفهمه أن القضية أصبحت الآن قضـية كرامة وتحد. طلب منه التدخل لدى السيد الوزير. انـتفض العضو، وعد ابن عمه خيراً :

"اعتبر الفرّاش في مكتبك منذ هذه اللحظة".

صباحاً اتصل السيد العضو بالسيد الوزير.

اتخذ السيد الوزير قراره، اتصل بالسيد وكيل الـوزارة، أبلغه بتعليماته.

اتصل السيد وكيل الـوزارة بالسـيد وكيـل الـوزارة المساعد، أبلغه بتعليمات السيد الوزير.

اتصل السيد وكيل الوزارة المساعد بالسيد مدير الإدارة،

أبلغه بتعليمات السيد الوزير.

اتصل السيد مدير الإدارة بالسيد رئيس القسم، أبلغه بتعليمات السيد الوزير.

ما مانع السيد رئيس القسم ما دام الأمر قد جاء من السيد الوزير.

هكذا، تمت إنهاء خدمات المدعو مرزوق صانع القهوة الجيدة.

أبريل - ١٩٩٩

ورق كارتون

خرج خالد من الحمام. زوجته عواطف مشغولة باختيار فستان خروجها الصباحي. السرير مزروع بالفساتين. قذف عليها :

"صباح الخير".

"صباح النور".

أجابته من خلف انشغالها.

مشّط شعر رأسه. خرج إلى الصالة. رأته الخادمة ماري. قالت بود :

"صباح الخير سيدي".

رد عليها :

"صباح النور".

جلس إلى طاولة الطعام. كانت جريدة الصباح بانتظاره، قرأ العناوين الرئيسية. أحضرت ماري صينية الإفطار : عصير البرتقال الطازج، وقطعة كيك. بهدوء وضعت الصينية أمامه. تلهّت عيناه بتصفُّح الجريدة، بينما انشغلت يداه بتناول إفطاره اليومي.

عاد إلى غرفة النوم. عواطف كانت قد استقرت على الثياب التي ستخرج بها إلى عملها. نزع هو دشداشة نومه، علّقها في مكانها المحدد، سحب دشداشة الخروج البيضاء النظيفة، لبسها، تناول الغترة والعقال. عواطف مشغولة بمكياجها. خرج إلى الصالة ثانية. وصلت إليه رائحة البخور. ماري كانت قد جهّزت المبخر، وضعته في مكانه المعهود. وقف فاتحاً ساقيه فوق المبخر، انحنى بعدها. حمل المبخر، بخّر غترته. برزت عواطف من غرفة نومهما، والمشط في يدها. أوصاه صوتها :

"لا تنسَ الليلة".

راح يطالعها.

"سنتعشى مع لطيفة وزوجها عماد كما اتفقنا معهما".

صحح عبارتها :

"كما اتفقت أنتِ".

وأردف :

"سأتأخر اليوم، لن أجيء للغداء".

استدارت تعود إلى الغرفة. تناول هاتفه النقال. سار خارجاً. كانت ماري تقف بانتظاره. فتحت باب الكراج، ركب سيارته. نظر إلى المرآة يطمئن على وضع غترته.

تحرك بسيارته، فأغلقت ماري باب الكراج كما في كل يوم.

بعد حوالي نصف ساعة، تركت عواطف السرير مزروعاً بفساتينها، تناولت كأس عصير البرتقال الطازج وهي واقفة، همست لنفسها :

"تأخرت عن العمل".

خاطبت ماري :

"ماذا ستطبخين للغداء ؟".

ردّت ماري باستسلام :

"كما تحبين مدام".

"أنا مستعجلة، خالد لن يأتي على الغداء، فقط أنا والأولاد، اطبخي أي شيء".

أسرعت عواطف خارجة، ألقت نظرتها الأخيرة على تسريحتها في مرآة الباب. ماري وقفت منتظرة. تحركت عواطف بسيارتها، فأغلقت ماري باب الكراج للمرة الثانية كما في كل يوم. عادت تدخل البيت بخطوة أخف.

في الرابعة عاد خالد محملاً بتعبه. قال :

"السلام".

ظلت عواطف تقلم أظافرها أمام التلفزيون. مشى إلى غرفة النوم ليأخذ غفوة العصر. لحقه صوت عواطف :

"موعدنا مع لطيفة وعماد في المطعم الياباني الساعة الثامنة والنصف".

ما علَّق بشيء.

أفاق في السابعة على صوت حركة عواطف.

في الثامنة أنهى لبس ثيابه، جلس يتابعها بنظراته وضيقه. تحامل على نفسه ينتظر انتهاءها من تسريح شعرها، ولبس ثيابها، ومكياجها. انتفخ وارماً بسكوته.

في التاسعة تركا طفليهما مع ماري، غادرا البيت صامتين كحجرين.

أوقف هو سيارته في موقف الفندق، وقبل النزول إلى المطعم، جهّز خالد وعواطف ابتساماتهما اللامعة. دخلا المطعم كأجمل ما يكون عشيق وحبيبته. ضحكا مع لطيفة وزوجها، قال خالد إن عواطف متعة حياته، وردت عواطف إنها لا تستطيع أن تتصور حياتها يوماً واحداً دون خالد.

تدخّل عماد :

"الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة".

وأضاف :

"لو فتشت القارات الخمس لا أظنني سأعثر على امرأة تسعدني مثل لطيفة".

ردت لطيفة :

"يا عمري يا عماد، حبيب قلبي".

خالد وعواطف أكلا جيداً، ودّعا لطيفة وعماد مبتسمين.

مشيا في بهو فندق السفير إنترناشونال كأجمل ما يكـون عشيق وحبيبته.

قبل دخول سيارتهما نفضا عنهما آخر ما علق بهما مـن غبار سهرتهما.

نزعا عن وجهيهما ابتساماتهما اللامعة. لبسـا صـمتهما الحجري.

عادا زوجين من ورق الكارتون المقوى.

يونيو - ١٩٩٩

ليلة أخرى

لغط أطفالك يملأ الصالة، تنفجر، ترفع صوتك صارخاً :

"أحمد، سأضربك".

تنظر إليهم بحدة. يخيم الصمت. يسكن الجميع. يختلس أحمد النظر إليك. يتبادل وإخوته النظرات، تعود ثانية لقراءة صحيفتك، وشيئاً فشيئاً يتبخر أثر صرختك، تبدأ الوشوشة، ويعود اللغط :

"بابا، بابا".

يد بشرى فوق كتفك. تستدير إليها :

"متى ستحضر لي الحقيبة الجديدة ؟".

تبتسم في وجهها :

"يا حبيبتي".

تستمر تعلّق عينيها الصغيرتين بوجهك. تزهو بأعوامها الثمانية، وبعض عتاب يلون صوتها العذب :

"ألم تقل حين أنجح ؟".

"صح".

تهز رأسك، تؤيد كلامها، فتكمل هي بثقة :

"لقد نجحت، متى ستحضرها ؟".

"أول الشهر".

تبعدها بلطف عنك :

"اذهبي ساعدي ماما في المطبخ".

"حاضر".

تعود لصحيفتك، فيصلك صوت هناء من المطبخ :

"زياد، افرش الجريدة".

بعد فترة تأتي هناء حاملة الصـــينية، تنحنـــي، فتخـــتلس النظر لصدرها. تصطادك، تبتسم لها، ويرتفع صوتك :

"أهلاً بالعشاء".

تبتسم هي. ترتب وإياها الأطباق. أطفالك يتحلقون حـــول الجريدة. الصغير أحمد يتجنبك. يستدير يجلس بقرب أمـــه. تطالعه، وتبتسم له. بسرعة تتحرك أيديكم، وبلذة تأكلون.

******

الهدوء يلف جلستكم. قلّ حديث أطفالك وكذلك حـــركتهم. اكتفوا بمشاهدة التلفزيون. خدر لذيـــذ تســـرب لأجســـادهم الصغيرة. رقبة أحمد تميل برأسه، فتخاطبه :

"حمودي".

تشير إليه :

"تعال بابا".

ينهض بكسل. يدنو منك. تحتضنه تقبله :

"إلى فراشك".

"تصبح على خير".

"وأنت من أهله".

الواحد تلو الآخر انسحب أبناؤك الأربعة إلى غـرفتهم. بقيت وحدك. أشعلت سيجارتك، أخذت نفساً طويلاً. افتقـدت هناء، وصوتك منادياً :

"هناء".

يتبخر أثر ندائك، فتكرر :

"هناء".

"نعم".

تنهض قاصداً غرفة أبنائك. تصلح من وضع أغطيـتهم، وتتجـه إلى المطبخ.

تجدها منحنية على حوض الغسيل، تدنو منها :

"ألن ينتهي الغسيل ؟".

تلتصق بها، تقبل رقبتها. تبتعد هي، يخرج صوتها ذائباً:

"زياد".

"ماذا ؟".

"ليس هنا".

"أحبك".

"وتتركني كل ليلة، تنام قبل وصولي".

"آه".

تقولها مستدركاً وواعداً :

"لن أنام الليلة".

"أكيد ؟".

تسأل هي، وتضيف :

"سأقتلك إن نمت الليلة".

"لن أستطيع النوم قبل وصولك".

"سنرى".

تقول هي وعيناها تصطاد وعداً من عينيك، فتبادرها :

"سأذهب لأغتسل".

"ثم تنام".

يدك تمتد تقرص مؤخرتها :

"قلت لك لن أنام الليلة".

تبتسم هي، وبنزق ترقص رقبتها.

*****

تخرج أنت من الحمام. تنادي :

"هناء".

هي في المطبخ، وبضيق تخاطب نفسك :

"ألم تنتهي بعد ؟".

تكرر نداءك :

"يا هناء".

"لم يبق شيء".

"أرجوك اتركي كل شيء".

"فقط أجهز ملابس الأولاد للمدرسة".

"أنتظرك".

"لا تنم، أنا قادمة".

*****

تتأكد من وضع المنبه قرب رأسك. عليك أن تستيقظ مبكراً كعادتك. أنت تعمل منذ السادسة صباحاً، وحتى السابعة ليلاً. ثلاث عشرة ساعة. تمتص يومك وقوتك. بتعبك وعرقك تشتري راحة أسرتك، وينتظرونك ماء تبلل جفاف أيامهم. أهلك هناك في الوطن البعيد.

حين تعود مساء لبيتك تحرص على الجلوس وسط أطفالك. لكن، صوت خطوات هناء المسرعة وسؤالها ينتشلك :

"نمت ؟".

"كلا".

"ابق مستيقظاً، لا تنم، أريدك الليلة".

يهزك نداؤها، تهمس لها :

"سأنتظرك".

"أحبك".

تقول كلمتها، وتسرع تتخلص من ثوبها في طريقها إلى الحمام.

*****

تسترخي أنت في الفراش. مضى قرابة الأسبوعين دون أن تتحابا.. لن تتأخر هناء في الحمام. تشعر فيما يشبه الخدر يسري في كتفيك وظهرك. للحظة تخيلت أن السقف ينخفض نحوك، ينطبق عليك.

*****

حاداً يرتفع صوت منبه الساعة. تقفز مذعوراً من نومك. وحدها هناء في الطرف الآخر من السرير. الخامسة صباحاً. تنظر إليها بحسرة. ليلة أخرى انقضت دون أن تتحابا. قبل أن تخرج لعملك تكتفي كعادتك بأن تطبع قبلة على جبينها.

الكويت – حزيران / يونيو – ١٩٨٧

سمكة سوداء

الخامسة والنصف. ساعة مضيئة، ومنفضة سجائر. ما زال الوقت مبكراً. أصاخ السمعَ، جميع من حوله يغطّ في سباته. الأشياء، وحوائط غرفته، والشارع المجاور. يوم عطلته الأسبوعية. يعلم أن لا شيء ينتظره. وحيداً سيمضّي وقته. يمضغ الدقائق والهواء. سرعان ما ستهيض عليه زنابير الوحشة. يحلّ عليه أساه ضيفاً صفيقاً. يتسلقه، ينفرد به، فتُظلم روحه !

عضّه تخشّب ظهره :

"آه".

انبعثت بألمها. وخاطب نفسه :

"تعبت".

لا يستطيع البقاء نائماً لأكثر من أربع ساعات. ينشب به تصلب عموده الفقري. اعتدل مُتوجعاً. أشعل سيجارة، مزّ نفساً منها، فأحسّ بالدخان يجرح بلعومه. انتبه إلى اللوحة * الجديدة، التي علّقها البارحة. استيقظ فرحٌ بداخله. حيّاها :

"صباح الخير".

حين قاد سيارته مساء أمس عائداً لشقته، واللوحة تحطُّ

مُستسلمة إلى جانبه. تحركت به ذكرى غائرة. أخذت عيونه. تراءت له غرفته في بيتهم القديم، سرير نومه بقوائمه الحديدية الرفيعة، وأرضيته المخسوفة، لوحاته المُلوّنة التي كان يمضّي الساعات الطوال برسمها على الحائط ، كتبه ودفاتره المدرسية، مسجلته وكومة أشرطته. جاءته رائحتها البنية تملأ أنفه، وجاءه وجه أمه !

ليلة البارحة، احتفى بمقدم اللوحة لشقته. جرّب أن يعلّقها في أكثر من مكان، وأخيراً استقر بها قبالة سرير نومه. اللون الأزرق بدرجاته يحتل معظم أجزائها، عدا السمكة السوداء التي اصطادها الفنان لحظة خروج الروح، وقد تشظّت بها ذكريات عمرها القصير. بينما أقفلت نجوم النحس الأربع راجعات، تحملن روحها البيضاء.

أطفأ سيجارته. عارياً نهض من سريره. طوله الفارع، شعره الأشعث، ولحيته الكثّة. أزاح ستارة النافذة. برز له الشارع وحيداً مصلوباً تحت شمس آب الصافية. تمنى أن يرى إنساناً. ظلّ لبرهة في أمنيته، وظلّ الشارع مُعرِضاً. كفّ عن هاجسه. جرّ خطوته، فلكزه ألم ظهره. حمله معه، سار به. دخل الحمام، ترك الباب مفتوحاً.

*****

وقف تحت كرة الرشاش، أطلق الماء الدافئ. تلوّى بلذة، يحرك فقرات ظهره المتخشبة، وعضلات بطنه. أحسَّ ببعض النشاط بينما يغادر الحمام. مدّ يده يأخذ المنشفة. همَّ أن يلفّها حول جسده، أعرض، رمى بها على كتفه.

يكره يوم عطلته. تلتم عليه وحدته. يشعر كأنه يهوي في بحرٍ من الرمال، يعنُّ له أن يتخفف من كل قيد. يترك نفسه لهواها، ينزع ثيابه، يمضّي يومه عارياً.

دخل غرفته، استقبلته بقية أنفاس نوم خاثرة. صافحه أزرق اللوحة المغري. سرح في حالة السمكة، اختارها قدرها، انصبَّ عليها، دفعها نحو كتلة القاع الصخرية، محطة أخيرة لرحلة حياتها القصيرة. أرسل سؤاله :

"منْ سيبكي سمكة ؟ ".

انسابت قطرات ماء من رأسه. بلّلت رقبته. اندست في غابة صدره. عبث بشعره في المرآة. حزن لارتخاء عضلاته، وكذا تدلي..

قرصته معدته. استدار وعريه، ترك غرفته.

******

مرّ على فوضى مطبخه المزعجة، وبقايا فضلات الطعام. أفلت :

"اليوم موعد زيارتها الأسبوعية. عادة تجيء مبكرة".

أكياس الشاي بلونها البني منقوعة بحوض الغسيل، صحن عشائه الملطخ، الأكواب والملاعق.

شَطَفَ إبريق الشاي الصغير. ملأه بالماء، ووضعه على النار. فتح باب الثلاجة، فتّش فيها.

استخرج جبنة مُثلثة، وقطعة خبز باردة. بحث عن خيارة. تمتم :

"الثلاجة خالية".

تخيّلها تأتي حاملة مئونته الأسبوعية. نَظّفَ كوباً للشاي. تناول صينية صغيرة. ألقى نظرة على الشارع. وجده مربوطاً إلى موقعه، وخلوّه من المارة المبكرين. غرغر الماء في الإبريق.

سحب كيس شاي جديداً. دلاه من خيطه في الكوب، وأغرقه بالماء الفائر. حمل صينية فطوره وعريه. خرج، قصد صالة جلوسه.

******

استقر على مقعده الوحيد أمام التلفزيون. أخذ جهاز التحكم عن بُعد. ضغط أحد الأزرار، فانبعثت الصور الملوّنة دونما حس. اعتاد أن يشاهد التلفزيون صامتاً، يكتفي

أن يتفرج على تتابع الصور الراكضة.

التقطت أذنه حركة المفتاح. انفتح باب الشقة. أطلّت فتاة سمراء، تحمل أكياساً بألوان مختلفة. أبصرته في عري جسده، وجلسته التي خبرتها. حيّته بإيماءة يعرفها. ودَّ لو تبادله حديثاً، أراد أن يستوقفها. ودون أن تكلّمه بشيء، أخذت طريقها للمطبخ. بدأت بالثلاجة، استخرجت محتوياتها قبل أن تنظّفها، تباشر تصفّ فيها : العصائر، والأجبان، والخضار، والخبز. انتقلت لحوض الغسيل، جلت كومة الصحون والأكواب والملاعق، نشّفتها، رتبتها في أماكنها المخصصة. وضعت المنظفات الجديدة، وأكياس القمامة في الخزانة السفلية. غسلت ولمّعت الحوض. داهمها يدٌ بجسمه فتحة الباب، حاملاً صينية فطوره. واجهها بصدره العريض، وعينيه الضارعتين. مدّ نحوها الصينية. أخذتها منه. تركت نظرته الراجية، عادت تُنهي عملها.

*****

بعد كنس غرفة نومه، غيّرت شراشف وأغطية السرير، نفّضت الستائر، لمّت ملابسه المتسخة، خرجت للصالة. كان لم يزل يشاهد التلفزيون عارياً ودخان سيجارته. استأذنته : "لو سمحت".

نظر إليها. رجع بمقعده إلى الخلف. باشرت التنظيف.

حين أنهت غسل وتعقيم وتلميع الحمام. وقبل أن تغادر، استخرجت ورقة من أحد جيوبها. قدمتها له. وقّعها. فاستعادتها. حملت أكياس الملابس المتسخة والشراشف. ندّت عنها الإيماءة ذاتها التي دخلت بها. تمنى لو يستبقيها. ولكنها ودّعته عارياً. خرجت، أغلقت الباب وراءها.

*****

حين انتصف النهار، كان الصمت الموحش قد أطبق عليه، غرز أظافره الحديدية في رأسه. عافت روحه منظر الشارع المهجور. مُنزعجاً قصد التلفون. تردد لدقائق. طلب رقماً. وعاد لمقعده.

خافتاً جاء طرق الباب. دفق قلبه. نهض من أمام التلفزيون، يفتح للقادم. أبصر فتاة لم يرها من قبل. حيّته بنظرة حذرة. قال لها :

"ادخلي".

قرأ خوفاً بخطواتها. طلب منها الجلوس على المقعد الوحيد أمام التلفزيون. افترش هو الأرض إلى جانبها. ظلاّ لفترة صامتين. كان بدخانه، وكانت بثيابها. وحين انبس صوتها يخدش صمت المكان. طلبت منه أن يرفع قليلاً صوت التلفزيون. نظر

إليها. أنهضها من يدها. قادها لغرفة نومه. أراد أن يُريها اللوحـــة، ولكنه وجد السمكة وقد غادرت مكانها !

٢٨ - آب / أغسطس - ١٩٩٦

• عن لوحة بعنوان: (نقشة بدوية)، للفنان : سامي محمد.

اتصال*

سالم شاب قصير القامة، له وجـــه لا تنقطـــع ضـــحكته، وعينان نزقتان. تخرَّج من جامعة الكويت، كلية العلوم، قسم الفيزياء، بتقدير جيد جداً.

في اليوم التالي لتخرجه، لبس دشداشة بيضـــاء طويلـــة، واعتمر غترة منشاة وعقالاً أسود لامعـــاً، وقصـــد ديـــوان الخدمة المدنية. قدم جميع الأوراق المطلوبة : صورة عـــن شهادة الجنسية الكويتية، صورة عن البطاقة المدنية، شـــهادة التخرج الأصلية، كشـــف الـــدرجات الأصـــلي، فـــاتورتي الكهرباء والماء مدوناً عليهما عنوان منزله، متطابقـــاً مـــع العنوان المثبت في بطاقته المدنية، وأخيراً، ثمـــاني صـــور شخصية ملونة قياس (٦ × ٤).

تسلّم أحد الموظفين ملف أوراق سالم، وقدم لـــه وصـــلاً صغيراً، مدوَّناً عليه اسمه، وتاريخ التقديم، ورقماً مسلســـلاً، فظل سالم واقفاً ينتظر سماع أي توضيح، ولكـــن الموظـــف اكتفى بالقول له :

"سنتصل بك حال توفر الوظيفة".

فخرج سالم من الديوان مكسور الخاطر.

احتمل سالم قلقاً الانتظار لشهرين من دون أن يأتي ذلك الاتصال. لبس ثانية دشداشة بيضاء طويلة، اعتمر غترة منشاة وعقالاً أسود لامعاً، ودسَّ وصل الديوان في جيبه، ومنَّى نفسه خيراً، وذهب للمراجعة.

ما وجد الموظف الذي تسلم منه الملف. أخرج الوصل، وقدمه لموظف آخر استرخى يقرأ جريدة. ألقى الموظف على الوصل نظرة من بعيد، وكرر عليه :

"سنتصل بك حين يصل رقمك".

تمنى سالم لو يعرف كيف تسير الأمور، فقال للموظف متسائلاً :

"هل هناك شخص مسئول أستطيع مقابلته ؟".

ردَّ الموظف مستنكراً، وقد داخل الانزعاج نبرات صوته

"بخصوص ؟".

تردد سالم قبل أن يقول :

"أستفسر منه، ربما ساعدني".

أجاب الموظف وهو يهم بمعاودة قراءة جريدته :

"لا تتعب نفسك، ستسمع الجملة ذاتها".

انقضت أشهر الصيف الطويلة، وكانت أشدّ حـراً علـى سالم في انتظاره.

تسلل الخريف الحزين.

أعلن الشتاء عن مقدمه.

خرج بعض الكويتيين إلى خيم الربيع في البر.

ظل سالم في انتظار اتصال الديوان.

اختفت الابتسامة من وجهه.

انطفأ بريق عينيه.

خَجِل من مراجعة موظفي الديوان، وسماع الإجابة ذاتها.

كان خارجاً من سوق الجمعية عنـدما قابـل إسـماعيل صديقه أيام الدراسة الجامعية :

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

بدا إسماعيل مختلفاً، لحية سوداء تتدلى علـى صـدره، وسمنة واضحة :

"كيف الأحوال يا أخي الكريم ؟".

تكلما لفترة، وكان إسماعيل شخصا مختلفاً، وقـد سـأل سالم عن عمله، فقال سالم بلهجة المشتكي :

"لم أجد عملاً بعد".

فرد إسماعيل متعاطفاً :

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

أخذ من سالم رقم تلفونه :

"سأتصل بك إن شاء الله، ونلتقي بإذن الله. السلام عليكم".

بعد أقل من أسبوع التقى إسماعيل سالماً في أحد المساجد بعد صلاة المغرب.

بعد أقل من شهر لفَّت لحية سوداء وجه سالم،

انمحت ابتسامة وجهه،

تلاشى بريق عينيه،

اعتمر غترة سائبة،

ترك عقاله،

قصرت دشداشته الطويلة،

جاءه سريعاً اتصال الديوان.

يونيو - ١٩٩٩

==========

• نشرت القصة لأول مرة تحت عنوان"تليفون".

مطرقة

بعد حفلة طلاقي من علي قبل ما يزيد على السنوات الثلاث، وما صاحبها من تدخلات ونقاشات وعراك، وتهديد علي وصراخه :

"أنا الرجل، الأمر بيدي، ولن أطلِّق".

كرهت عالم الرجال. منّيت نفسي بالعيش حرة، حدّثت روحي :

"لن أسمح لرجل بالركوب فوق رأسي ثانية، يملي عليَّ أوامره، يتحكم بيومي وحياتي".

طوال الشهرين الماضيين، ما عاد لأبي وأمي من موضوع سوى الخطيب الجديد سالم.

قال أبي مدافعاً ومادحاً الرجل :

"سالم مختلف، غير الزفت علي. رجل متزن وهادئ. توفيت عنه زوجته، ما أكملت سنة معه. ليس له عيال، ثم أن ماله كثير".

تدخلت أمي بهيئة المعترضة موجهة كلامها لأبي :

"أهلاً وسهلاً بالرجل. لكن..".

ندّت منها نظرة سريعة نحوي، أكملت بعدها :

"لابدَّ لبنتنا من أن ترى الرجل".

حاولت أن ألزم هدوئي. تركت لهما أن يتناقشا. أبي بسيجارته وبحة صوته التي أحب، وأمي بالتفاتاتها المكشوفة. بقيت بتصفحي لصفحات مجلة الأزياء، وكأني لست صاحبة الشأن. قال أبي :

"لقد أعطيت الرجل وعداً".

كان يريد لي أن أسمع. توقفت عن القراءة. وضعت المجلة على الطاولة أمامي. وحين رفعت عينيَّ له، خاطبني:

"إلى متى وأنتِ هكذا ؟ لابدَّ لكِ من الزواج".

جعلتُ أفكر لبرهة، قلت له بعدها :

"سأقابله، وإذا أعجبني نتفاهم".

ظهر السرور على وجهيهما. نهضت واقفة، تركتهما قاصدة غرفتي.

******

حين زارنا سالم، رفضتُ أن أحمل الصينية، أحني قامتي، أقدم الشاي له. قلت لأمي موضحة :

"لا أريده أن يتعرف عليَّ في أول لقاء، كما لو أنني خادمة".

جلست في غرفتي. تجاهلت رجاءات أمي المتكررة :

"انزلي اجلسي مع الرجل قليلاً".

ظلت تحثّني متوسلة، تخبرني أن الرجل ملَّ الانتظار، وأنه يوشك على المغادرة، وأن أبي محرج لا يدري ماذا يقول، وتلطف صوتها :

"أرجوكِ يا ابنتي".

تعمدت لبس بنطلوني الجينز الضيق، والقميص الأبيض بأكمامه القصيرة. وضعت لمسة مكياج خفيفة، وتركت شعري منفلتاً بجنونه :

"بسرعة يا ابنتي".

"حسناً، سأنتهي حالاً".

نزلت بكعب حذائي العالي، وهدوء خطواتي. دخلت إلى صالة الجلوس رافعة رأسي، رميت بسلامي خطفاً، دون أن أنظر صوبه، وجلست بعيدة، واضعة ساقاً فوق ساق. نظرة واحدة كانت كافية لأتأكد أنه هو. اطمأن قلبي. في منتصف أربعينياته. ليس بوسامة وحضور علي. لكن، يبدو هادئاً، وحسن الهندام.

كنت تلقطت أخباره من إحدى صديقاتي، عرفت منها سمعته في عمله ووضعه الأسري، راقبته عن بعد.

*****

"حادثة قديمة".

قال، وأضاف والتأثر يغشي صوته :

"كنتُ طفلاً حين قُطع إصبعي".

كان لقاؤنا الأول، مساء خرجنا معاً : سالم وأنا، وكان يقصُّ عليَّ قصته :

"كنتُ أزور مصنع أبي للنجارة، خطف المنشار الأكبر إصبعي، ولم ينتبه أحد إلا على صراخي وارتفاع نافورة الدم".

شعرتُ أن الألم يملأ عينيه وحسّه، وكأنه يستحضرها تلك اللحظة الصاعقة. قلت مهونة الأمر :

"ما حدث قد حدث وانتهى".

ظل شاخصاً ببصره وكأنه ينتظر مني مواساته بمصابه، أكملت وبعض الحب بصوتي :

"همتك ونشاطك بألف إصبع ويد".

اكتفى ينظر إليَّ، هازاً رأسه.

*****

في صباحنا الأول، استيقظت باكراً على عادتي. كان متدثراً بهدأة النوم إلى جانبي، جعلت أتأمله بأنفاسه المنتظمة وغيابه. خفق قلبي لحظة لمحت كف يده اليمنى بأربعة

أصابع، خالية من الإبهام، جعلت أعاود تأملها.

انسللت من مكاني وخيط جزع خفي يلعب بصدري. خطوت على رءوس أناملي وفزعي، استدرت حول السرير، قرّبت وجهي من الكف، جعلت أتأكد شكلها.

ارتجافة باردة رشت ظهري بمائها. تخيّلت يده بأصابعه الأربعة تنزلق فوق ظهري. فاقشعر جسدي.

"عليَّ أن أنساها، إصبع واحدة لا تصنع رجلاً، ولا تمنع سعادة".

رددت مع نفسي.

*****

فى أثناء غدائنا الأول، تناول سالم كأس الماء بيده اليسرى، خاطبني :

"ربما كان للماء طعم آخر. شربة ماء بيدي اليمنى".

اعتقدته يلمّح كي أسقيه بيدي، فتجاهلته وتلميحه. قلت بعد برهة :

"لا تكن حساساً ، الماء ماء، باليمنى أو اليسرى".

أكملنا الأكل وقد اندس الصمتُ بيننا.

*****

كنت أسرّح شعري، حين وقف خلفي، شعرت به

يلامسني، جعل يطالعني في المرآة. ابتسمت له، لكن عينيه باحت فيما يشبه حسرةً، أفلت :

"أتمنى لو أمشِّط شعري بيدي اليمنى".

"لا فرق كبير".

علّقت على جملته. شعرتُ بالضيق يحضر بي. أردت أن أصرخ به :

"كفى تشكّياً".

رميت بالمشط تركت شعري.

*****

كان يقود السيارة، وكنت طربة أردد لحن الأغنية مع موسيقى شريط الكاسيت الجديد :

"عانيت الكثير قبل حصولي على إجازة القيادة".

قال وشكواه. التفتُ إليه، فأكمل :

"اليد اليمنى هي الأساس في التحكم بمقود السيارة، وناقل الحركة".

"سالم".

قاطعته بحدة. التفت إليَّ مستغرباً، فقلت منهية النقاش :

"قيادتك جيدة، ثم أن قيادة أصحاب اليد اليمنى".

شعرت بالضيق، حاولت أن أعود ثانية أسلم سمعي

للموسيقى، لكن شيئاً انطفأ بها وبروحي.

*****

حين وصل دوره لدفع فـاتورة الشـراء، اسـتل قلمـه المذهب، وقّع على قسيمة الشراء. كنت أقف بجانبه، ولحظة خطونا مبتعدين، وصلني صوته :

"تعلمت الكتابة باليد اليسرى مجبراً، جميع إخوتي يكتبون باليد اليمنى".

اصطكت أسناني. تعمدت أن أنظر إليه مظهـرة حنقـي. حدّثت نفسي :

"لن ننتهي من هذه القصة الزفت، لابدَّ وأن يحشـر يـده اليمنى في كل مناسبة".

أكملت طريقي إلى السيارة صامتة، ما نطقت بكلمة.

******

لا أعرف كيف نزل الخبر عليَّ :

"أنتِ حامل يا مدام".

شعرت وكأنني أذوب في الهواء، أسرعت بفرحي، أحمل الخبر لسالم :

"قل مبروك".

قفز من جلسته :

"حامل ؟".

سألني، وأسرع يضمّني لصدره، قبل أن يستدرك :

"عليك أن ترتاحي تماماً، لا حركة ولا تعب بعد اليوم".

خطا للوراء، جعل ينظر إليَّ وكأنه يراني للمرة الأولـــى. قرأت ودّاً صافياً أطلَّ في عينيه. مـــا أحببـــت ســـالم كمـــا اللحظة. انطلق صوته :

"أخيراً سيأتي ابني، أكاد لا أصدق".

ابتعد بنظرته، ومن بعيد جاءني حسّه :

"سأحافظ عليه كما عيوني".

رفع يده يتأملها، وقبل أن ينطق.

هاضت معدتي، تقيّأت فرحتي. همَّ أن يقول شيئاً، لكـــن صوتي سبقه :

"أرجوك، كفّ عن ذكر إصبعك المقطوعة".

دفعت بوجهه، تركته في جلسته، أدرت ظهري مبتعـــدة. جاءت إليَّ كلمات أبي :

"توفيت عنه زوجته، ما أكملت سنة معه".

رنّ برأسي السؤال :

"ما الذي قتل زوجته"؟.

٧ - أيلول / سبتمبر - ١٩٩٩

ذبابـة

لن أنادي على صبيحة.

هذه ذبابة بائسة. من أين دخلت إلى هنا ؟ الشباك الوحيد في غرفتي مغلق دائماً. صبيحة لا تترك منفذاً مفتوحاً، تقول لي :

"الهدوء ألزم لك".

ما عدتُ أذكر، ربما، مرَّت سنتان دون أن أزيح ستارة النافذة، أنظر للشارع المحاذي.

أحياناً أكون مشغولاً في كتابة إحدى مقالاتي، فتدخل عليَّ ضجة مفاجأة. أضع القلم، أنقطع لبرهة عن الكتابة. تحملني الأصوات المتداخلة إلى صخبها وضجتها. أهمّ أن أنهض من مكتبي لأبعد الستارة، أرى ماذا يجري هناك. أبقى لحظات معلقاً بين النهوض والبقاء، أرهف السمعَ، أهمس لنفسي :

"أبقى في كتابتي أفضل".

أحاول أن أطرد الضجة عني. تنبت رائحة الدخان في رأسي، أشتاق سيجارة بدخانها المتصاعد. تأتيني تحذيرات

صبيحة المتكررة، فأنفخ ما في صدري من ضيق، وأعـود أنكبُّ على الكتابة.

من أين دخلت هذه الذبابة البائسة ؟

صبيحة تنظف ستائر غرفة مكتبي صباح كل يوم خميس بعد خروجي من البيت. تنفض عنها ما علق بها من غبار.. تعرفني لا أطيق ضجيج المكنسة الكهربائيـة، ولا يحتمـل صدري ذرات الغبار المتطاير.

"هيا، توكل على الله".

تخاطبني، تحثني على الخروج. أكون للتو قـد أنهيـت اغتسالي، وتكون قد جهَّزت لي الدشداشة والغترة والعقـال وكذا الجوارب والحذاء اللامع. تقف تراقبني بينمـا ألـبس. وفي كل مرة، تمدُّ يدها ترتّب وضع الغترة والعقال. تخطـو إلى جانبي، وقبل أن أخرج، تبخّرني، تعطرني بدهن العـود وتودعني :

"في أمان الله".

وتحذرني :

"التدخين، صدرك..".

أغلق الباب، أضع نظارتي الشمسية، أسـتقبل الهـواء، تخفّ خطوتي، آخذ طريقي إلى"المقهى الشعبي" قرب شاطئ

البحر. ألتقي أبا صالح.

أكثر من عشرين سنة، وهو وأنا نجتمع على الموعد نفسه. من يصل قبلاً، يأخذ طاولة الركن الصغيرة بمواجهة البحر، يجلس بانتظار صاحبه.. في أحيان كثيرة، نطأ عتبة المقهى في اللحظة ذاتها ! نتبادل السلام والتحية. نردد على بعضنا :

"صبّحك الله بالخير".

نجلس نجتر أخبارنا المكررة، وأخبار الجرائد ونشرات أخبار التلفزيون، وربما قراءاتنا الجديدة، نتذكر أيامنا الماضية، وتهزني النشوة لحظة يطلب أبو صالح الدومينو. حينها يرتفع صوته :

"تأخذ سيجارة ؟".

أنظر إليه، فيبتسم، يكمل يشجعني :

"هيا، سيجارة واحدة في الأسبوع لا تضر. ما عليك من أم العيال.. تفضل".

يمد يده لي بالسيجارة. أتناولها مسروراً. أسحب نفسي الأول، وأطلق الدخان وصوتي :

"ستتالك اليوم هزيمة ساحقة".

أنفض دشداشتي أكثر من مرة في طريقي إلى البيت.

لكن، وفي كل مرة، أشعر بصبيحة وكأنها تختبئ خلف الباب. تفتحه أمامي لحظة ألمس الجرس. تستقبلني كما ودعتني، وصوتها :

"حياك الله".

وما تلبث أن تطلق آهتها :

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

أفهم أنها تتكلم عن رائحة السيجارة، فأتركها أهرع إلى مكتبي، فيلحقني صوتها :

"لم ألمس شيئا في مكتبك، فقط نظّفت الغبار".

أهزُّ رأسي موافقاً، أقول لها :

"تسلمين".

أسرع لمكتبي وكتاباتي، وكأني غبت عنهما دهراً.

سأتأخر بسبب هذه الذبابة، لم أكمل مقالي الأسبوعي بعد. نصف ساعة كاملة مضت، والذبابة لم تزل تشاغلني، تشوّشني.

لا أدري من أين دخلت !

تحوم فوق رأسي، ما عدتُ قادراً على التركيز أو الكتابة.

ربما عليَّ أن أنادي صبيحة.

لن أناديها، سأتخلص من هذه الذبابة البائسة.

أين هي المنشّة البلاستيكية الصفراء ؟ رأيت صبيحة آخر مرة تضعها تحت رف المكتبة.

لن أنادي على صبيحة.

لا داعي لأن أصبح معتمداً عليها في كل شيء، سأعالج الموضوع.

لأترك الكتابة قليلاً، أبحث عن المنشّة أولاً.

منذ تقاعدتُ من عملي، جلست في البيت، تغيّر شيء في علاقتنا، لجأت أنا للقراءة والكتابة، وتولت هي ترتيب وإدارة كل شيء في البيت. تبقى مشغولة طوال الوقت دون أن أسمع حسها. اكتفيت أنا بالعيش في عالمي، بين القراءة والكتابة وسرقة التدخين وسماع الأخبار.. صرنا نحيا معاً وأقل القليل من الكلام.

لا أذكر أن صبيحة قصّرت معي في يومٍ.

ها هي المنشّة. أين الذبابة ؟

يجب عليَّ تسليم المقال غداً صباحاً للجريدة، أخشى أن أتأخر.

أين اختفت هذه الذبابة ؟ ما عدتُ أسمع طنينها، ربما غادرت الغرفة.

نسيت إلى أين وصلت في المقال. عليّ أن أبـدأ قـراءة الموضوع من جديد حتى أستطيع إكماله.

أحياناً أعجب لصبيحة. لا تكـاد تهـدأ، تـدور وتـدور كالماكينة، منذ أن تستيقظ، وإلى أن تأوي لفراشها. رفضـت أن تأتي بخادمة للبيت. أختها أم ناصر تقول لها :

"أنتِ لست امرأة كويتية !".

صبيحة تعمل بصمت ونظرة جد تحتل وجههـا. ابنتنـا ريما تزوجت وانتقلت لبيت زوجها، وسافر ولدنا شهاب مع زوجته إلى كندا، وبقينا وحدنا، هي وأنا.

لا أعلم أنا شيئاً عن شئون البيت. أستيقظ في السابعة، أقـرأ جريدتي الصباحية مع فنجان القهوة، بعدها تبدأ هي تحوم حولي تستعجلني. فأنهض ألبس ملابسي الرسمية تحت بصرها بشفتها المزمومة. تمشي معي. فأدخل إلى مكتبي، فتقول لي :

"لا تقض الوقت في القراءة، عليك أن تكتب، ولا داعـي للتدخين الزفت".

تغلق الباب ورائي. أبلع جملتها ولا أرد عليها.

آخذ مكاني خلف مكتبي، أبدأ بالقراءة قبـل الكتابـة. لا أدري كيف يمضي الوقت. فجأة أجدها تقف أمامي. يُخيـل لي أحياناً أنها تخرج لي من تحت المكتب، تنتصب بهيئتهـا

ويدها الممدودة، تأتيني بالعصير وقطعة "الكيك".

أحياناً يدور ببالي أخبرها أنها تفزعني بانبعاثها المفاجئ.

مراراً فكرت أن أصارحها بأنني مللت اهتمامها الزائد بي، ودائماً أشعر كأن شيئاً يصدني.

عاد طنين الذبابة المزعج. سأنتظر لحين تحط بقربي، فأسدد لها ضربة واحدة، بعدها أنادي على صبيحة، فتأتي مفزوعة كعادتها. أطلعها على المفاجأة، أشير إلى الذبابة المسكينة. لترفعها هي بورقة "الكلينكس". تنظف مكانها.

أين ولّت ذبابة البؤس ؟ المنشّة في يدي، ما عدت أحتمل.

أرفف المكتبة تلفّ حوائط الغرفة، محشوة بالكتب. ربما صار علينا أن نضيف أرففاً جديدة، سأكلم صبيحة لترتب الأمر مع النجار.

سأتأخر عن كتابة مقالي. منذ بدأت الكتابة للجريدة، ما تأخرت يوماً عن موعد تسليم مادتي.

ذبابة صغيرة بائسة، ما هذه الورطة المزعجة ؟

لأضع المنشّة جانباً، أتجاهلها أعود للكتابة، أبدأ مجدداً بقراءة الموضوع.

"اللعنة".

رجعت تحوم فوق رأسي. أين المنشّة ؟

ها قد حطّت، لأختار الوضـــعية المناســـبة، لا أريـــد أن أضيع هذه الفرصة.

"اللعنة عليك ذبابة".

عادت تطير. سألاحقها. لن أكفّ عنها.. تحط على الكتاب.

"هيا، اضرب".

تفلت مني. أين ولّت ؟!

"اضرب.. اللعنة".

سأبقى أجري خلفها.

"اضرب".

لابدَّ أن أوقع بها. تقترب من البـــاب. لأتركهـــا تحـــط. سأعطيها الأمان ريثما ألتقط أنفاسي.

من أين جاءت ؟ مؤكد أنها دخلت عن طريق الخطأ. مـــا استطاعت احتمال المكان. لماذا أعاقبها ؟

لم تطق البقاء هنا، تريد الخروج لضوء الحياة !

لن أقتلها.

سأعينها على الهرب.

سأفتح النافذة.

٢٠ يونيو / حزيران – ٢٠٠٠

جـدار قديم

أبي كان أول منْ كتب على الجدار. أذكر ذلك المســاء، كرر عليَّ والضيق يملأ وجهه :

"غير معقول يا ابني، أرجوك ركِّز معي".

كنت وحيد أبي، ما رزقه الله بأبناءٍ غيري، وكان يعلمني جدول الضرب للرقم ثمانية، وكنت أتعثر في حفظ الأرقــام، وفجأة قال لي :

"قلم كبير، أعطني قلماً كبيراً".

جعل يخط ناتج جدول الضرب للرقم ثمانية على الجــدار قرب رأسي.

"انظر، لا كتاب ولا قلم، الأرقام كلهــا قــرب رأســك، أرجوك احفظ الجدول".

حين خرج أبي، جعلتُ أتأمل الجــدار، ولا أدري كيــف حفظت جدول الضرب !

تلك كانت الحادثة الأولى، بعدها صــار أبــي يخــطّ أي معلومة يودّ لي حفظها، وصرت لا أحفــظ شــيئاً إلا حــين أخطه على الجدار.

سنوات كثيرة مرت، مات أبي، والحروف ظلت مكانها.

تلوّن الجدار بحوادث حياتي : زيارات أصدقائي، نتائج امتحاناتنا، مبارايات الدوري، مواعيد صديقاتي، أرقام تلفوناتهن وأسماؤهن المخبّأة، رسومات بقلوب الحب والأسهم النازفة، أبيات شعر، أسماء الأفلام، والبطلات الجميلات، وتواريخ كثيرة، كانت وقتها هي الأهم في يومي.

اتفقت أمي مع خالي، باعت بيتنا القديم بعد وفاة والدي، ودون أن تخبرني، قالت لي :

"سننتقل لبيتنا الجديد".

ليلتها ما غمضت عيناي. كيف لي أن أترك خط أبي ؟ ومواعيد صديقاتي الأولى، وبيت شعر طالما رددته، وأسماء منْ مرَّ بغرفتي، ومنْ لعب، ومنْ نام، ومنْ

"لن أغادر غرفتي".

اعترضت بوجه أمي.

"لكننا بعنا البيت".

"أنتِ منْ باع وليس أنا".

"يا ابني، يا حبيبي".

"لن أغادر بدون الجدار".

"ماذا ؟!".

" ".

بعد فترة، أحضر خالي مهندساً مدنياً متخصصاً، وجـاء معه مقاول. عاينا غرفتي، دارا حولها من كل جانب :

"يمكن نقل الجدار".

قال المهندس، وأكمل :

"لن يكون سهلاً. لكن، نسند الجدار، نعلقه بحبال حديديـة عن طريق الرافعة. نحفر لمـا تحـت الأساسـات، نقطـع الخرسانات المتداخلة، نفصل الجدار عـن بـاقي الجـدران والسقف، نحمله بالرافعة، وننقله مع القواعد علـى وسـادة هوائية خاصة".

واتفاً كان صوت المهندس، طلب مبلغاً عالياً، فردّ عليـه المقاول بأن المبلغ قليل. تجادلا طويلاً، أصـرَّ المقـاول أن العملية محفوفة بالمخاطر، وأن العمل يحتاج لعمال مهـرة، وأن الجدار قديم ويحتاج لرعاية خاصـة، وأن، وأن، إلا أن المهندس كان طيباً، وقف إلى جانبي، طلب من المقـاول أن يقنع بالربح القليل، وأن العمـل حالـة خاصـة، تسـتحق المغامرة، والتفت يخاطب خالي :

"لا يهم أنا أدفع الفرق من جيبي، ما رأيك ؟".

وافقت أنا دون تردد، قلت :

"أريد الجدار أن يقف في غرفتي الجديدة سالماً كما هو".

"طبعاً، طبعاً".

ابتسم المهندس، وكذا شاركه المقاول، خرجا يتهامسان.

درس المهندس خرائط بيتنا الجديد، حدد مكان الجدار في غرفتي، وبدأت عملية النقل.

أخبرت أصدقائي، بأنني لن أتخلى عن جدار غرفتي وذكرياتي، وأنني اتفقت مع مهندس مختص لنقله، وصباح بدء العمل، جاء الجميع لرؤية نقل الجدار.

مع كل خطوة زاد إعجابي بدقة عمل المهندس، وهمة المقاول. استخدم معدات متطورة، لقص الخرسانات، وفصل السقف. جعل يبعد كل قطعة بالرافعة، دون أن تتصاعد ذرة غبار.

كنت أتابع ما يجري، والخوف يخفق بقلبي.

لفَّ المقاول الجدار بطبقة من الأسفنج السميك، وقماش أبيض ثقيل، أعاد اللف أكثر من مرة، والتفت نحوي :

"اطمئن، ستبقى كلماتك مكانها".

بعوارض خشبية متقاطعة تمَّ تحزيم الجدار، وتعليقه بالرافعات، وبدأت عملية الحفر تحت الأساسات.

كنت أتصبب عرقاً وأنا أسمع صوت الحفارات تعمل

تحت الجدار، وكان الأصدقاء يحيطون بي، يهونون الأمر عليّ. وما إن أصدر المهندس أوامره :

"خلص، انفك الجدار".

حتى قفزت من مكاني فرحاً، أصرخ :

"ها، ها".

سارت عملية نقل الجدار بأيسر مما أظن، وصل الجدار ملفوفاً بخرقته البيضاء، محمولاً على وسادته الهوائية، وبدأت عملية حفر القواعد الجديدة، وصب خرسانات التقوية،وأعمدة الإسناد.

ظل الجدار ملفوفاً بأبيضه، صامتاً قرابة الأسبوعين، بعدها تمّ إنزاله في مكانه المحدد، وكما هو ظني بالمهندس جاء كل شيء بالقياسات المضبوطة، وبعد أن أنهى صب الخرسانات المثبتة حول الجدار، قال لي :

"سيبقى جدارك ملفوفاً هكذا لحين ننتهي من جميع الأعمال، لا أريد أن يتلفه شيء".

ولم أمانع رأيه، قلت :

"كما تريد أيها المهندس العظيم".

تنفست الفرح :"ها هو جدار غرفتي القديم يأتي لبيتي الجديد، لن أتخلى عن ذكرياتي، وخط أبي، وأسماء

صديقاتي".

جعلت أعد الأيام، انتظرت على الجمر لإنهاء أعمال الغرفة وما حولها.

يوم رفع الغطاء عن الجدار، رتّبت لحفلٍ كبير، دعوت كل أصدقائي وصديقاتي، تمنيت لو كان والدي حياً، أضاء كشاف كبير جنبات الغرفة، ولحظة بدأ المقاول رفع غطاء القماش الثقيل، خفق قلبي، ما عدت أستطيع الوقوف، فلقد انكشف الجدار، وقد انقشع صبغه القديم، ظهر وجهه الخرساني مسوداً، خالياً إلا من بعض الحفر الشوهاء الصغيرة !

٢٠ – يوليو / تموز – ٢٠٠٠

رسالـة

للمكتبة رائحة يحفظها أنفي ويستذكرها بين مكان وآخر : خليط من رائحة الكتب ورائحة الغبـار ورائحـة الخشـب ورائحة "مس" عويدات، أمينة المكتبة، بنظارتهـا الصـغيرة وهندامها الدائم.

لا أدري لماذا أحببت مس عويدات منذ رأيتها أول مرة، حينها كنت في الصف الثاني الابتدائي، وكانـت هـي كمـا اليوم، ربما في منتصف الخمسين من عمرها. قليلة الكـلام. تحتفظ بمسحة حزن على وجهها، وكأنها ودعت للتو فكـرة أبكتها سراً. تبقى ملتصقة بمقعدها تنظم بطاقـات الكتـب، مثلما تنتشر في كل زاوية من زوايا المكتبة، وأمام كل رف.

قليل عدد البنات اللاتي يأتين إلى المكتبة أثناء الفرصـة، وأقل منهن عدد الأولاد. أدخل بهدوء محاولة أن أبلع صوت خطواتي. تتلاقى نظراتنا، أحيّيها من بين شـفتيَّ، فتـومئ برأسها مرحبة. أقطع المسافة قاصدة الطاولة التـي أحـب الجلوس إليها في الزاوية المختبئة.

"بابا الحبيب، كما في مرات كثيرة، أكتب لك رسالتي وأنا في المكتبة.. بداية : مساء الخير، فأنا لا أدري متى سـتعود

الليلة مساءً لتقرأ رسالتي. فعـادة أنـام دون أن أراك، وإن رأيتك فأنت، في الغالـب، مشـغول بأعمالـك وزيـارات أصدقائك ونقاشاتك التي لا تنتهي مع أمي.

قبل قليل خرجت ماما من المدرسة.

يوم أمس نادت عليَّ مدرسة اللغة الإنكليزيـة الجديـدة، قالت لي :

"لماذا تكتبين كثيراً في مواضيع التعبير ؟".

ما عرفت بماذا أردُّ عليهـا. دارت عيناهـا السـمكيتان تمسحان وجهي، خبّأت نظراتي عنها، عادت تحثّني :

"تكلمي".

انتظرت مني إجابة، لكن رأسي ظل فارغا. بقيت واقفـة خلف صمتي، فأنّبني صوتها :

"هذه ليست المرة الأولى، قبل ذلك حـذرتك : لا تكتبـي أكثر من ثلاث صفحات".

حين وقفت أمام مدرّسة الرياضة، بعد أن أخذت قيـاس أطوالنا، قالت لي :

"أنت أطول البنات في الفصل".

مسّني ما يشبه فرحاً ، قرصني خجل مباغت في وجهي، أسرع طرف شفتي العليا يرفّ. ما فهمت عبارة المدرّسـة،

هل كانت تمدحني أو تؤنبني. بقيت ساكتة، فأضافت :

"أنت تصلحين للعب الكرة الطائرة، أو كرة السلة".

كنت واقفة، وكانت عينا مدرّسة اللغة الإنكليزية شاخصتين نحوي. خفت، ما عرفت كيف أصارحها. عرض لي أقول لها : لدي من القول والأفكار والهواجس الكثير، لكنني ما تعلمت الكلام.

بابا الحبيب سأصارحك، كلما دارت الكلمات على لساني، أسرع صوتك الذي أحفظ يخرسني، يصرخ بي :

"سأقطع لسانك بالسكين".

لا أدري إذا كنت تذكر يا أبي. يومها كنت أنا في السابعة.. في تلك الليلة هددتني أنتَ وغضبك الذي لم أفهم :

"سأقطع لسانك..".

هربت من أمامك. أسرعت إلى غرفتي، أغلقت بابها بالمفتاح، دخلت فراشي، أغمضت عينيَّ، خبّأتهما براحة يديَّ. كنت خائفة أرتجف، وكانت شفتي العليا، والنوم كان خائفاً مثلي، ففرَّ مبتعداً، تركني وحدي.

ليلتها بكيت كثيراً. تصورتك تأتي إليَّ في أي لحظة ممسكاً بسكين المطبخ الطويلة، تسحب لساني، تقطعه بجرة واحدة، وتصورت فمي يفيض بالدم الأحمر، وتصورت أمي

تبقى على الحياد، كما هي في كل موقف، تردد عبارتها التي أكره :

"لا دخل لي بينك وبين ابنتك".

يوم أمس خاطبتني مدرّسة اللغة الإنكليزية :

"لتأت أمك غداً".

بابا الحبيب، كنت أتمنى لو أنها طلبت حضورك. كنت سأكتب لك رسالة مختصرة، أطلب منك المجيء. وكعادتي كنت سأتركها على مكتبك، وفي الصباح كنت سأجد ردك.. ترد بقلمك الأحمر عريض الخط، وكعادتك كنت ستعتذر بسبب مشاغلك الكثيرة.

بابا، أحب خط قلمك الأحمر العريض، وأحب الطريقة التي تكتب بها حرف الميم، وأحبك تكتب في نهاية الرسالة، مع حبي.

لا أدري متى جاءت ماما إلى المدرسة.

مدرّسة اللغة الإنكليزية أرسلت تطلبني من الفصل. حين ذهبت لغرفتها رأيت ماما جالسة أمامها. دخلت ولم ألق التحية. ما قلت أي كلمة. نظرت إلى وجه أمي، قرأت عليه شيئاً كأنه الضيق. وجّهت المدرّسة كلامها لي :

"أنا أخبرت ماما بخصوص مواضيع التعبير".

ظلت ماما ساكتة، وظلت نظرتها، وبقيت أنا واقفة مطبقة

شفتيَّ، وكان هناك كرسي فارغ يقابل مجلس أمي، تمنيتها تأذن لي بالجلوس لكنها لم تفعل.

منذ حادثة مدرِّسة الرياضة، صرت أختار أحذيتي دون كعب، أنا أطول بنات الفصل.

"أنتِ طالبة متفوقة، لكن لا تطيلي كتابة مواضيع التعبير لهذا الحد".

خاطبتني المدرِّسة، والتفتت نحو أمي قائلة :

"ابنتك ساكتة معظم الوقت لا تتكلم، ربما تعوض ذلك بالكتابة".

"ربما".

وافقت أمي مؤكدة كلام المدرِّسة، ونظرت صوبي وكأنها تعاتبني.

بابا الحبيب، بعد غد سيكون يوم عيد ميلادي. سأكمل السادسة عشرة. ولأنك طلبت مني أن أحدد نوع هديتي، أطلب ما أشاء، فأنا لا أريد شيئاً، فقط أودّ لو نخرج وحدنا، أنت وأنا. نذهب لمشاهدة أي فيلم في السينما، بعدها نتعشى في المطعم الذي أحب، على أن نعود إلى البيت مشياً على الأقدام، كي أستطيع أن أتكلم معك أطول وقت ممكن، فهناك سر أتمنى لو أبوح لك به. بابا الحبيب، تصبح على خير".

٣٠ يونيو / حزيران – ٢٠٠٣

المؤلف فى سطور

- طالب الرفاعى
- من مواليد ١٠ / ٥ / ١٩٥٨.
- حصل على بكالوريوس الهندسة المدنية – جامعة الكويت/ كلية الهندسة والبترول، العام الدراسى ١٩٨١ / ١٩٨٢.
- بدأ الكتابة الأدبية أثناء الدراسة الجامعية فى منتصف السبعينيات.
- نشر أول أعماله القصصية فى جريدة (الوطن) الكويتية، بعنوان "إن شاء الله سليمة"، بتاريخ ١٧/ ١ / ١٩٧٨.
- كتب عموداً ثقافيا فى جريدة القبس الكويتية منذ ١٩٩١ وحتى ٢٠٠١.
- كاتب فى الصفحة الثقافية لجريدة الحياة اللندنية من ١٩٩٩.

صدر له

- الكتاب الأول مجموعة (أبو عجاج طال عمرك) / دار الآداب – بيروت ١٩٩٢.
- الكتاب الثانى مجموعة (أغمض روحى عليك) / دار الآداب – بيروت ١٩٩٥.
- الكتاب الثالث مجموعة (مرآة الغبش)/ دار المدى –

دمشق ١٩٩٧.

- الكتاب الرابع رواية (ظـل الشـمس)/ دار شـرقيات – القاهرة ١٩٩٨.
- الكتاب الخامس مجموعة (حكايا رملية)/ دار المـدى – دمشق ١٩٩٩.
- الكتاب السادس دراسة (البصير والتنوير)/ دار قرطـاس – الكويت ٢٠٠٠.
- الكتاب السابع مسرحية (عـرس النـار)/ دار المـدى – دمشق ٢٠٠١.
- الكتاب الثامن رواية (رائحة البحر) دار المدى – دمشق ٢٠٠٢. حازت على جائزة الدولـة فـي الآداب عـام ٢٠٠٢.
- الكتاب التاسع دراسة (المسرح فـي الكويـت.. رؤيـة تاريخية) الكويت ٢٠٠٢.
- صدر له كثير من الأبحاث الأدبية والمعمارية والهندسية.
- تناول إبداعه عدد كبير من النقـاد والأكـاديميين، كمـا دُرست أعماله فـي أطروحـات جامعيـة للماجسـتير والدكتوراه فى العديد من الجامعات.

فهرست

ليال ٥
الواجهة..... ١٣
شاشة ١٩
مانيكان..... ٢٩
أبو عجاج طال عمرك..... ٣٣
خيمة بني همام ٥٥
شمس ٧١
أشياء صغيرة..... ٧٥
على السيْف ٨٣
مرآة الغبش ٩١
تحت الشمس ١٠٣
ليلة باردة ١١١
قهوة مرّة ١١٩
ورق كارتون ١٢٥
ليلة أخرى ١٣١
سمكة سوداء ١٣٧
اتصال ١٤٥

مطرقة..... ١٤٩
ذبابة ١٥٧
جدار قديم..... ١٦٥
رسالة ١٧١
المؤلف فى سطور ١٧٧

صدر من هذه السلسلة

١- عيون الغرباء ..... فتحى غانم
٢- السرداب رقم ٢ ..... يوسف الصائغ
٣- حكايات للأمير ..... يحيى الطاهر عبد الله
٤- مجنون الورد ..... محمد شكرى
٥- نجمة ..... كاتب ياسين
٦- نهر المجرة ..... عبد الوهاب البياتى
٧- السد ..... محمود المسعدى
٨- بناية ماتيلد ..... حسن داوود
٩- سرير لعزلة السنبلة ..... محمد الأشعرى
١٠- حجر الضحك ..... هدى بركات
١١- سأهبك غزالة ..... مالك حداد
١٢- الخماسين ..... غالب هلسا
١٣- حزن فى ضوء القمر ..... محمد الماغوط
١٤- مختارات ..... وديع سعادة
١٥- سباق المسافات الطويلة ..... عبد الرحمن منيف
١٦- دعوا الشقاء سالما (مختارات)..... عباس بيضون
١٧- أف ! (مختارات) ..... زكريا تامر
١٨- مجنون الحكم ..... بنسالم حميش
١٩- مختارات من القصة المغربية.. اختيار وتقديم أحمد بوزفور
٢٠- يغير البحر ألوانه ..... نازك الملائكة
٢١- مختارات من القصة العراقية ..... ياسين النصير
٢٢- ملحمة السراب ..... سعد الله ونوس

٢٣- عليك تتكئ الحيـاة ..... ممدوح عـدوان
٢٤- حكاية زهرة ..... حنان الشـيخ
٢٥- ليس فى رصـيف الأزهار من يجـيب ..... مـالك حـداد
٢٦- أهل الهـوى ..... هدى بركـات
٢٧- النحنحات ورائحة الخطو الثقيل ..... إبراهيم صموئيل
٢٨- ممالك ضائعة ..... على جعفر العلاق
٢٩- قمر شيراز ..... عبد الوهاب البياتى
٣٠- عزيزى السيد كواباتا ..... رشيد الضعيف
٣١- سهل الغرباء ..... صلاح الدين بوجاه
٣٢- صيف لن يتكرر ..... محمد برادة
٣٣- كتاب الأيام والأنام .....جمال أبو حمدان
٣٤- طيور الحذر ..... إبراهيم نصر الله
٣٥- وليمة لأعشاب البحر ..... حيدر حيدر
٣٦- ضو البيت - مريود - دومة ود حامد ..... الطيب صالح
٣٧- صيف افريقى..... محمد ديب
٣٨- مخطوط فى العشق ..... محمد القيسى
٣٩- إنه جـسـدى ..... نبـيلة الزبيـر
٤٠- أنشودة المطر ..... بدر شاكر السياب
٤١- الست ماري روز ..... إيتل عدنان
٤٢- الفراشة الزرقـاء ..... ربيع جابر
٤٣- الحى اللاتينى ..... د. سـهيل إدريس
٤٤ - الظاهرة القـرآنيـة ..... مـالك بن نبى
ترجمة : د. عبد الصبور شاهين
٤٥ -قرطاج ..... عز الدين المدنى
٤٦ -قـرارة الموجـة ..... نازك الملائكة

٤٧ -قصائد متمرِّدة ..... شعر: أحمد مشَاري العَدواني
اختيار وتقديم : د. محمد حسن عبد الله
٤٨ -الوردة تموت ..... شعر: محمد عزيز الحبابى
ترجمة : أحمد عثمان
٤٩ -المصابيح الزرق ..... حنا مينه
٥٠ -السفينة ..... جبرا إبراهيم جبرا
٥١ - أغانى الحياة..... أبو القاسم الشابى
٥٢ - اللهب المقدس..... مفدى زكريا
٥٣ - رأيت رام الله..... مريد البرغوثى
٥٤ - حُنُو الضمة.. سُمُو الكَسرة ..... محمد الفقيه صالح
٥٥ - حدث أبو هريرة .. قال ..... محمود المسعدى
٥٦ - النبوءة.. مسرحية شعرية..... د. خالد محيى الدين البرادعى
٥٧ - القصة السعودية المعاصرة ..... اختيار وتقديم : د. طه وادى
٥٨- زهرة الصندل..... وليد إخلاصى
٥٩- العلامة..... بنسالم حميش
٦٠- إشراقة ..... التجانى يوسف بشير
٦١- النهر المسافر..... البيلى عبد الحميد
٦٢- نشيد الحياة..... يحيى يخلف
٦٣- ثلاث مسرحيات قصيرة..... د. سلطان بن محمد القاسمى
٦٤- قصائد الوجد والدم..... فدوى طوقان
اختيار : د. محمد زكريا عنانى
٦٥- انكسارات القلب الأخضر..... عبد العزيز مشرى
اختيار وتقديم : سمير الفيل
٦٦- هكذا يغنى طائر الأرز..... هدى ميقاتى
اختيار وتقديم : إسماعيل عقاب

٦٧- مصرع ألماس..... ياسين رفاعية
٦٨- الغزالات.. ومسرحيات أخرى..... د. أحمد إبراهيم الفقيه
٦٩- سر الماء..... عبد الرحمن مجيد الربيعى
٧٠- حلم غير قابل للكسر ..... مختارات من قصص : ليلى العثمان
اختيار وتقديم : حسين عيد
٧١- نشيد الحياة..... عبد الله خليفة
٧٢-٧٣- الظاهرة القرآنية ..... مالك بن نبى
ترجمة : د. عبد الصبور شاهين
٧٤- أباريق البلّور(يوميات صحراوية) ..... محمد القيسى
٧٥- الخمائل ..... إيليّا أبو ماضى
٧٦- نخلة الله وقصائد أخرى (مختارات من شعر).. حسب الشيخ جعفر
اختيار وتقديم : حسن النجار
٧٧- شرق المتوسط..... عبد الرحمن منيف
٧٨- شجرة الرّتَم (قصص قصيرة)..... إبراهيم الكونى
٧٩- ديوان العباسى..... محمد سعيد العباسى
٨٠- غيمة الصمغ ..... عدنان الصائغ
٨١- الشارع الأصفر ..... توفيق فياض
٨٢- مختارات من شعر سيف الرحبى ..... سيف الرحبى
٨٣- مختارات من قصص جميل حتمل ..... جميل حتمل
اختيار وتقديم: سلوى بكر
٨٤ - ٨٥- ديوان الرصافى ..... معروف الرصافى
٨٦- شجر طيب(قصائد مختارة) ..... إبراهيم نصر الله
٨٧- تعويذة لدخول البيت (مختارات شعرية)..... أمجد ناصر
٨٨- القصة القصيرة فى السودان..... اختيار وتقديم/ فؤاد مرسى
٨٩- شمس (مجموعة قصصية) ..... تأليف/ طالب الرفاعى